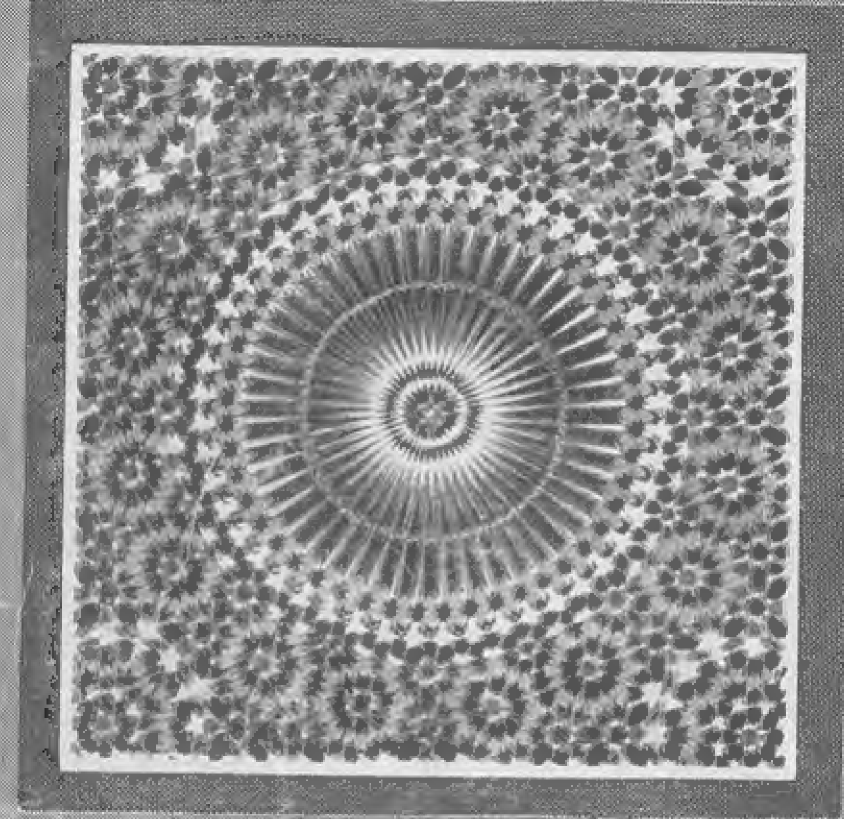
محمد المكي ابراهيم



الفكر السوداني

أصوله وتطوره

الطبعـة الاولى ١٩٧٦

الطبعـة الثانية ١٩٨٩م

الطابعون : مطبعة أرو التجارية

الإهداء

إلى الشاعر المجيد الدكتور
محمد عبد الحي
في ذكـــرى تلك
الاقامة الرائعة عام ١٩٦٥
التى كُتِبت فيها بعض هذه
الفصول

مقدمة للطبعة الثانية

فرغت من كتابة هذه الفصول عام ١٩٦٥ ونحن في مطالع الشباب فأخذت عن الشباب حدته وعنفوانه وقد نصحني الكثيرون بمراجعتها وتوسيعها ولكنني رأيت إرجاء ذلك وحرصت على نشرها على هيئتها الاولى املاً ان يستفيد الباحثون مما انطوت عليه من الحدة والعنفوان في اقتراح المواضيع والتعرض لها ويذهني من طوائف الباحثين المشتغلون برسائل الماجستير أو اطروحات الدكتوراه ففى هذه الفصول الكثير مما يمكن ان يقترح نفسه عليهم ليتوسعوا فيه بالتفنيد او التأييد.

ظهرت هذه الفصول عام ١٩٧٦ في كتيب لم يكن جميل الطباعة وبأعداد اقرب ما تكون للقلة فلم تجد حظها من الذيوع والانتشار وقد رأينا إعادة الطبعة وتصحيحها حرصاً على وصولها للقراء الكرام قبل ان تدخلها يد التشذيب والتنقيح طبعة تالية.

لم اجد في نفسي كبير اختلاف مع الاراء المطروحة في هذه الفصول رغم تقادم العهد ولكنني ابصر بوضوح تام مواطن الضعف وامكانيات التحسين الكثيرة في الشواهد والصياغة وعنها اعتذر للقارىء الكريم آملاً إستدراكها في الطبعة التالية باذن الله.

والله نسأل ان تحظى بالقبول وان تحقق بعضاً من النفع.

هذا ولا يفوتني ان اسجل جزيل شكري وعاطر ثنائي لاخوتي الفنان المبدع عبدالحميد ميرغني والفنانة انعام الحاج لما قاما به من جهد مقدر مشكور في الاشراف على جمع هذا الكتاب وتصحيحه وتصميمه واخراجه على هذه الهيئة الطيبة جزاهما الله عني وعن الثقافة خير الجزاء.

القسم الاول

الاصول

أصول الفكر السوداني

حين دكت ارجال الغزاه امبراطوريات بعانخي وترهاقا وحين طمرت رمال الصحراء حضارات نبته ومروى كانت الارض السودانية قد فقدت مرة والي الابد لواءالمبادرة الحضارية التى ظلت ترفعه طوال اجيال متلاحقة واصبحت بجموعة البشر التى تعمرها يتيمة واضايعة، في عالم مضطرد التقدم والتمدن متجدد الحضارات. عندئذ لم يكن غريبا ان يستورد السودان الديانةالمسيحية، وان تنهض علي اساسها ثلاث دويلات سودانية هي: علوه والمقره والنوبة وان تظل تلك الدويلات ضعيفة ومتنازعة حتي يكتسحها امامه الغزو العربي الوافد.

لم يكن دفعاً مفاجئاً، ولا صدمة عارمة، وانما كان عملية بطيئة صبورة تسير بثبات وتثبت ويقين فمنذ ٦٤١م كان المدّ العربي يحفر مجراه في شمال الارض السودانية متدفقاً نحو الجنوب بسيوله هادئة ومطمئنة. وعبر المعاهدات والمهادنات وعمليات التبادل التجارى رسخت القدم العربية وبدأت زحفها الواثق حتي تم لها النصر الكامل علي مملكة النوبة في القرن العاشر ومملكة المقره في القرن الرابع عشر، وكان المدماك الاخير حين هجمت قبائل الفونج المستعربة علي مملكة علوه المسيحية فهدمتها، واقامت مكانها السلطنة الزرقاء التي استمرت من ١٥٠٥ الي ١٨٢١.

إن الميلاد الحقيقي للثقافة العربية في السودان يبدأ بعهد الفونج. ولكن هذا لا يعني ان الثقافة العربية لم تدخل السودان الا مع ذلك العهد لانه ثابت ان الثقافة العربية اكتسبت مكانها المشروع بين ثقافات السودان، في طليعة الغزو وليس علي اعقابه، فقد تسربت مع قوافل الحجيج. وفي اخراج التجار وحقائب الدعاة والمسافرين، وعلي الدوام كان المسجد يقام والاذان يدوى في ممالك السودان المسيحية لتاتي علي صداه جحافل الفتح العربي بل ان تاريخ الثقافة العربية في السودان، يضرب في اعماق التاريخ الي بعد اعمق من ذلك يعود الي ما قبل الاسلام والي ايام الخلفاء الاول، ولكن تلك البواكير لم تخرج عن مستوى اللقاء العابر الي مجالات التاصل والترسيخ.

في البداية كان هنالك جموع من القبائل العربية تعايش خليطاً من قبائل السودان الحامية والزنجية. وعلي امتداد العصور بدأ العرب الوافدون يختلطون بأهل البلاد اما مصاهرة واما استرقاقاً. ومن خلال هذا التلاقح ظهر الي الوجود

مخلوق جديد هو السوداني الحديث، الذى لا يشكل دماً عربياً خالصاً او دماً زنجياً خالصاً، ولكنه بالتأكيد يجمع في انسجته بين ذينك النوعين من الدماء، ويحمل في دماغه نتاج الثقافة الاقوى والاكمل: الثقافة العربية وعلي حين انه كان مقدورا ان ينقرض العرب الخلص رويداً رويداً، او يعتصموا بالبوادى بعيداً عن كل تأثر او تأثير، وان ينعزل الزنوج داخل الغابات الاستوائية، ويخفت صدى ثقافاتهم الوطنية - بذلك الحين كان السوداني الجديد يزداد تركزاً وتنحاز اليه اعداد هائلة من الوطنيين المستعربين، الذين نبذوا دياناتهم الوثنية والمسيحية ليدخلوا الاسلام. وتخلوا عن انسابهم الاصيلة مدعين لانفسهم انساباً عربية ربما بدا عليها طابع المغالاة في معظم الاحوال، لاتصالها الدائم بالرسول الكريم واعمامه وكبار صحابته.

وفى عهد الفونج استقرت السلطة السياسية فى البلاد، فى ايدى العناصر المتسعربة، من الذين ينحدرون من اصول عربية مهجنة، او الذين صنعوا لانفسهم ذلك النوع من الانساب. فالفونج انفسهم كانوا على احسن الفروض من المستعربين، اذ تختلف الروايات حول اصلهم فمن قائل انهم من الشلك او من تشاد ومن قائل إنهم من بقاياالامويين الذين هربوا الى الحبشة من وجه العباسيين والفور فى سلطنة دارفور كانوا من عناصر حامية مستعربة، واما حكام مملكة تقلى فكانوا اصلا من قبيلة الجعليين العربية، ولكن انسابهم سرعان ما ضاعت اثر اختلاطهم بالوطنيين وبقاياهم اليوم تعرف بالتقلاويين تمييزاً لهم عن الجعليين من جهة، وعن قبائل جبال النوبة من جهة اخرى. وقد نتج عن تمركز السلطة السياسية فى ايدى السودانيين ان تجمعت بين ايديهم اعنة القيادة الفكرية والروحية فى المجتمع، فظهر فقهاء وشعراء ومتصوفة من صفوف ابناء الاماء والسرارى، كاسماعيل صاحب الربابة، وعبدالله صابون، والشيخ موسى ابوقصة، وبان النقا الضرير. كما ظهر عشرات من العلماء الذين ينتمون الى اصول نوبية مسلمة كالدناقلة والمحس والبجا. لذلك ربما كان من الجائز تاريخيا، ان نقرر ان اسلام السودان وتعريبه لم يتم على ايدى العرب الوافدين، وانما على ايدى هؤلاء المستعربين وفى ظل دولة مستعربة هى دولة الفونج.

والشيء البارز فى حيوات هؤلاء القادة، وحيوات الاجيال اللاحقة، هو مايشبه عقدة عرقية، فمع تسلسل انسابهم واتصالها بقبائل العرب العريقة، الا ان اختلاطهم بالعناصر المحلية افقدهم الكثير - فقد الوافد العربى إهابه

الاسمر واكتسب درجات متفاوتة من السواد وفقد قسماته المميزة او جزء منها، وفقد التصاقه الحميم باصوله العربية. والى جانب ذلك كان يواجه مايشبه التحدى. بل كان هنالك حقيقة نوع من التحدى الزنجى، يهدد العناصر العربية بالامتصاص والذوبان، ومن هذين المنبعين جاء ذلك التأكيد الغريب على مسألة العرق ومايلتف بها من مسائل لغوية ودينية، فقد كان الوافد العربى يقدر جهله (١) وعجزه عن الصمود امام تيارت التحريف والتأقلم ومن ناحية ثانية كان يعى حقيقة انعزاله عن التيارات الحضارية الجديدة فى الوطن العربى الام، وكنتيجة لذلك بدأت فى السودان وبطريقة جادة عملية استيراد واستضافة الفقهاوالعلماءمن مختلف البلاد العربية. واستمرت هذه الظاهرة عبر عصور التاريخ السودانى الحديث، وتأصلت كجزء من القاعدة الاخلاقية للشعب، بحيث اصبح الانسان العادى يتوقع من كل وافد ان يكون الاغزر علما والاوسع معرفة.

من مصر والمغرب والحجاز كان العلماء يفدون على السودان، وينزلون ضيوفا مكرمين على سلاطين الفونج والفور، ويجدون من الشعب الاذن الصاغية، والتقدير العطوف. بل ان نوعا من التنافس بدأ بين الممالك السودانية على استضافة العلماء وتكريمهم، وبلغ الامر لدى الملك بادى ابودقن ملك سنار، انه كان يبعث الهدايا الى علماء مصر مع خبيره احمد ود علوان ويتلقى منهم قصائد شكر ومديح (٢). وعلى كل فان القادة والشعب كانوا يدركون طبيعة الجهل الذى يعيشونه، وبالتالى كانوا على اتم استعداد للتلقى عن العالم العربى، بدون تدقيق او تمحيص، مكتفين بالقشور والنفايات، وكل ما تطوله اليد. وقد صبغت تلك العقلية كل عصور التاريخ السودانى اللاحقة بطابعها الخاص، بحيث انه يصبح من الممكن الزعم بان عهد الفونج كان عهد التلقى بالنسبة للثقافة العربية وعهد التلمذ على البلاد العربية، وعهد الاكتفاء بالقشور الثقافية دون اللباب.

(١) ولم تشهر فى تلك البلاد ـ اى دولة الفونج ـ مدرسة علم ولا قرآن يقال ان الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى نهاره من غير عدة كتاب الطبقات للفقيه ودضيف الله. ص٥. وهناك اجماع بين مؤرخى السودان على ان القبائل العربية التى دخلت السودان كانت من البدو المعروفين برقة الدين وعدم التفقه فيه.

(٢) مخطوطة كاتب الشونة ـ ص ١٠

في ذلك العهد كانت الثقافة العربية قد تعرضت لشتى الضغوط، وخاضت العديد من المعارك ضد الشعوبيين والفرنجة (في الاندلس) والتتار والصليبيين والسلاجقة وانهكت تماما. وعندما بدأ في السودان عهد التلقي، كانت الثقافة العربية قد غدت مسخا مشوها، وضاعت ملامحها الاصلية في ضباب الهزائم والمنازعات، فلم يتلق السودان منها سوى النفايات والقشور لكونها غير قادرة على اعطاء الاكثر والاكمل. ولم يكن انهاك الثقافة العربية السبب الوحيد وراء تلك الظاهرة، فقد كان وراءها سبب اخر مهم هو نوعية الرجال الذين حملوها الى السودان، فهم بلا شك لم يكونوا قادة الفكر والرأى في عصرهم، ولا حتى من اشباه القادة ـ كانوا مجرد رجال عاديين، على حظ من العلم وان كانوا لايخلون احيانا من الشعوذة والتهريج، قذفتهم شتى الدوافع الى اصقاع السودان لينشروا العلم احيانا وليجمعوا الدنيا باسم العلم في احيان اخرى. لقد غادروا اوطانهم في ظروف صعبة، وفي عهد ضاقت فيه ارزاق العلماء والمفكرين، واقتصرت مجالات الكسب امامهم على وظائف القضاء والافتاء ومشيخة العلماء التي كانت احتكارا للعلماء الممتازين، فخرج رجال الصف الثالث والرابع، وانبثوا في فجاج الارض بحثا عن الرزق والحرية. ولكن، وبغض النظر عن نوعيتهم، فان سودان القرنين السادس والسابع عشر كان دائما على استعداد للتتلمذ والاصغاء، ففي هذه المرحلة لم يكن السودان يسعى الى العلم وانما كان العلم يسعى اليه. وكان السودانيون اعجز من ان يهاجروا الى الازهر او مكة والقيروان ليأخذوا العلم من مناهله نظرا لتخلف اساليب المواصلات، وعدم استتاب الامن. وعلى ذلك لم يكن مفتوحا امامهم مجال المفاضلة والاختيار، بل على العكس، كان عليهم وفقا لما يشبه التقليد، ان يتقبلوا كل وافد ويأخذوا من كل نبع.

* اللغة العربية

حمل اولئك العلماء الى السودان، اللغة العربية والفلسفة الصوفية، بوصفهما المظهرين الاساسيين للفكر في القرنين السادس والسابع عشر. اما العربية التي جاءوا بها فقد كانت لغة غير صافية ومليئة بالتعقيدات والتحريفات التي ادخلتها عليها عصور الانحطاط، بحيث بدت غريبة على اذان الناس. ولم يكن احد في السودان على استعداد لتعلمها على اساس النعرة المتفاخرة التي ما زالت تزعم ان لهجة السودان الدارجة هي اصفى وافصح لهجات المنطقة العربية. وبدلا

من تلك اللغة المعقدة، ازدهرت فى السودان لهجته الدارجة خاصة واصبحت لغة الادب والشعر وتكاد جميع الاثار الادبية التى خلفها عهد الفونج تنتمى الى هذا النوع من الادب الدارج فامثال فرح ودتكتوك وحكمه وقولاته الخالدة، واشعار اسماعيل صاحب الربابة وابو جروس وود قرشى وود آدم وكتاب الطبقات للفقيه ود ضيف الله، كلها مصوغة فى قالب عامى، احتفظ بسيرورته خلال القرون حتى وصل الينا واندرج بلا عنوان فى قائمة التراث الشعبى. ولم يخضع الفكر السودانى لتاثير لغة عهود الانحطاط الا فى العهد التركي حين اصبحت السلطة الحاكمة تتبناها وتتخذها لغة رسمية للمكاتبات والدواوين، واصبح لها بالتالى اثرها الواضح على المؤلفات السودانية فى العهد التركى كما سياتى.

ويرغم كل هذا، فان السودانيين اخذوا باللغة الفصيحة، ومن بعيد احتفظوا لها باصدق التقدير، فقد كانوا يعرفون انها لغة الفقه والقرآن والحديث. وقد قرأوا بها الرسالة ومختصر خليل ومتون الاخضرى والاجهورى. ومع انهم احجموا عن تعلمها بصورة جادة الا انهم حفظوا احتراما صادقا للرجال الذين تعلموها او بالاحرى الموا بها الماما طفيفا ويتجلى هذا الاحترام فى كتاب الطبقات بصفة خاصة بحيث يستغرب المرء كيف فات على عالم مثل ود ضيف الله ان يضع يده على الضعف والركاكة فى مثل هذا الكلام :

يامعشر الزوار اين مناحكم	واملمكم سهم القضا وافله
وامامكم قد صار ذلك مغيرا	اسف عليه هوا أمد حزناه
أسف واسف ثم اسف ثالث	اسف واسف بعده ووراه
أسف عليه دوام دهر دايما	اسف عليه بكرة ومساه
أسف عليه مدى الزمان وطوله	اسف عليه فلا عوضا نلقاه
أسف على قمر بدأ فى ظلمة	وطرا الكسوف لنوره اغشاه
أسف على الشمس المنيرة شيخنا	خضر الزمان وغوث ذا قطباه

لان الفقيه ود ضيف الله يقول عن هذه الركاكة المؤسية انها «قصيدة جميلة وفت بالغرض المطلوب وزيادة».

ويبدو ان اشهر شعراء الفترة واحظاهم بالقبول هو عبدالنور بن ابيض والذى كثيرا ما يشار اليه بعبد النور الشاعر مما يدل على اتساع شهرته كشاعر.

وفى ترجمته القصيرة يقول صاحب الطبقات كان شاعرا ماهرا يمدح الرسول عليه افضل الصلاة والسلام ويمدح شيوخه العركيين. وههنا مثال لمهارته فى مدح احد اشياخه

تحلف بعده التحبر المسمى ﺑﺪﻭﻋﻢ الله من اسد شبول
وفى العصر الذى قد حل فيه حميع العارفين له ذلول
أطاعته العساكر والاكابر وكم زاروه اقطاب فحول
ولايلد الاسد الا مثيله ولا يلد البقر الا العجول
ولا يلد النحل الا لقاحا ولايلد النحل الا العسول
وأولاده كلهم صالحون بيض الوجوه اهل الفضول

وقرءة النماذج القليلة التى وصلتنا من شعر الشيخ محمد ود هدوى، والفقيه عبى الشافعى، والشيخ ود عبدالهادى، والسيد ود دوليب ومكى الدقلاشى - قرءة هذه النماذج كفيلة بان تؤكد لنا ان السودان لم يأبه كثيرا لاساليب التعبير التى خلقها عهد الاتراك فى الشرق الاسلامى، واعتمد بدلا من ذلك لهجته الخاصة متخذا منها لغة أدب وعلم، حتى جاء العهد التركى فى السودان، ووضع حدا لذلك الموقف اللامبالى ولكن نلمح فى اواخر عهد الفونج بدايات التلقى الصحيح بالنسبة للغة العربيه، وذلك بعد ان اسهمت رحلات الرحالة الاوربيين فى تعريف العالم بالسودان، وبعد ان تيسرت سبل الاتصال بمصر، وبدأت اطماع ولاتها تتجه نحو الجنوب، عندئذ نجد لدى الشعراء عندئذ اوفق بلغتهم وآرائهم وعاريضهم وفهمها واعيا - وان لم يكن كاملا - حقيقة الفرق بين اللغة الفصحى واللهجات المحلية، فتراهم يتعاملون مع الفصحى كلغة مناسبات وطقوس ومراسيم، ولا يلجأون اليها الا فى مواقف بذاتها ومع ان شعرهم صار فصيحا واستقام الا انه بقى تقليديا ومهرورا، واغراضه تكاد تنحصر فى الرثاء.

وهذه القصيدة التى أوردها كاتب الشونه (ص ٨٠) لشاعر مجهول فى رثاء عهد الفونج تكاد تمثل أسمى قمه لغوية استطاع ذلك العهد ان يصلها، قبل ان يلفظ انفاسه الاخيرة:

ارى الدهر اقبالا وادبارا فكل حين يرى للمرء اطوارا
يوما يريه من الافراح اكملها يوما يريه من الاحزان اكدارا

وكل شيء اذا ماتم غايته   ابصرت نقصا به في الحال اجهارا

آه على زمن قد كان في طرب   كنا بجمع مع الاحباب سمارا
آه عليها وآه من مصيبتها   لم نسلها ايما حللنا اقطارا
فأوحشت بعد ذلك الانس وارتحلت   عنها الاماثل بدولتنا وحضارا
وصار عمرانها للمحسوس مندرسا   يصيح بوم به في الليل صرارا
أضحت تعانيها من بعد بهجتها   كأنها لم تذق للخير اثارا
وأبدلت دولة الاعزاز من همج   كأنهم لم يكونوا الدهر اوزارا

كانوا كراما بإحسان ومرحمة   كانوا ملوكا واشياخا واوزيرا
كانوا ليوثا وابطالا مجربة   كانوا تجارا واشماسا واقمارا
فلو رأيت بهم ما حل من ضرر   لاجريت دمعك اعلانا واسرارا
ائمة الدين يهدنا لهم شرف   ففيهمو حكموا الرصاص والنارا

وفي اخريات عهد الفونج ايضا يظهر الشاعر الفقيه ابراهيم عبدالدفع، الذي يمكن اعتباره مخضرما، لانه عاش الى العهد التركي، ولكن مصدر ثقافته الاساسية تنتمي الى عهد الفونج. وقد افتتح حياته في عهد الاتراك بمناوئة السلطة، حتى انتهى بهم الامر الى عزله ونفيه الى ليبان طره بمصر. ولولا هذه النهاية الفاجعة لربما كان له في عهدهم شأن اى شأن. ومع ان الآثار التي تركها قليلة «خمس قصائد في مخطوطة كاتب الشونة وبضع قصائد يرويها نعوم شقير» إلا ان شعره يمثل درجة من الجزالة والتماسك لم يستطع العهد التركي بلوغها، حتى نهاية ايامه على ارض السودان. ونراه في اشعاره القليلة التي وصلتنا يتحسر على دولة الفونج ويسخط على العهد الجديد فيما يرثي بعض العلماء في هذه القصيدة يثب فجأة ليهاجم الطغيان التركي :

اليوم اصبح ركن الدين منهدما
بموت اخواننا في الله والعلما
واظلمت ارضنا حقا وقد خمدت
نار الكتاب وضاع العلم وانهدما

وإختل ما كان موجوداً بقريتنا

من السرور واضحى الان منفصما

ديارنا بعدما كانت معمرة

منهم غدت مسكن الطاغين والظلما

كنا زمان يجيها الركب من بعد

الى العلوم وللقران والحكما

صرنا طعاماً بلا ملح يلذ به

تعافه اعين الرائى ومن طعما

ورجل هذا حاله، كان لا بد ان يصطدم بالسلطة فى عصره، ويضع السجن نهاية مباحثة لحياته الادبية التى كان يتوقع منها الكثير، ولكنه حتى وهو فى السجن ظل يكتب شعرا صوفيا فيه توسل لله باسمائه واوليائه، وقد أكتسب شعره هذا سيرورة فريدة، واصبح حرزة من اوراد اهل الذكر فى السودان.

ان شعر الفقيه ابراهيم عبدالدافع ورصفائه من ادباء اواخر عهد الفونج يمثل قمة لم يتطاول اليها الادب فى عهد الاتراك، بل ان هذا العهد الاخير يمثل انتكاسة الى الوراء بالمقارنة مع عهد الفونج، اذ انه ادخل على الادب السودانى تقاليد الادب المملوكى الملىء باللاعيات والمحسنات على حين ان الشعر على عهد الفونج كان يحاول الاقتراب دائما من شعر المتقدمين، وكلما مضى الزمن كلما قصرت المسافة بينهما كما هو واضح من شعر الايام الاخيرة.

التصوف

والشيء الثانى الذى حمله العلماء الوافدون الى السودان هو التصوف وقد يبدو الامر غير ذى بال، لان المنطقة العربية بطولها وعرضها خضعت ذات يوم للتاثير الصوفى. ولكن الامر يتخذ شكلا اشد خطورة بالنسبة للسودان، فقد دخله التصوف فى ذات الوقت الذى بدأ فيه الدين الاسلامى يكتسح الديانات الوثنية والمسيحيه من بين القبائل السودانية وامتزج الاسلام بالصوفية، بحيث اختلط الاثنان فى اذهان الناس، واصبحت الصوفية تعنى الاسلام، واصبح الدخول فى الاسلام يعنى اختيار طريقة من الطرق الصوفية هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى، كان انتشار الصوفية فى السودان اوسع منه فى اى مكان اخر

فقد كان الوتر الافريقي في العقلية السودانية يستجيب للصوفية، بأذكارها، واناشيدها وجوها المسحور. وقد ظلت الصوفية تحكم البلاد وتوجه اقدارها منذ القرن الخامس عشر حتى سنوات مابعد الاستقلال ولم تخططها بالتقلص الا في المدن الكبرى وعقب الحملات الواسعة التي شنها المثقفون وانصار السنة. ومن ناحية ثالثة كان تيار الثقافة الفقهية في السودان من الضعف بحيث لم يستطع الصمود امام بدع الصوفية (٣) وعبثها فانتشرت بلا مقاومة في ميدان مفتوح وارض ممهدة، ومهما كان الامر، فقد انسحب خمسة قرون من التصوف في طبع الفكر السوداني بطابع غير علمي مازلنا نجد رواسبه في اكثر من مجال فهو المسؤول عن قلة احتفال الفكر السوداني بالبحث العلمي، وهو المسؤول عن ظاهرة قصر النفس الكتابي والخطابي لدى اجيال السودانيين، وهو المسؤول عن السذاجة العاطفية التي تتجلى في ضعف الأداة المنطقية والميل الى تقرير الايمان بالرأي بدلا من الاقناع به، ثم انه المسؤول ايضا عن معظم مظاهر الحياة الاخلاقية كالقناعة والزهد والعزوف عن طيبات العالم. لقد خلق التأثير الصوفي لدى الفكر السوداني استعدادا رومانسيكيا وعاطفيا لم يتخلص منه حتى اللحظة سوى قليل من المفكرين السودانيين وبالذات الذين تلقوا دراسات غربية المصادر.

وكما هو الحال مع كل مظاهر الثقافة في السودان، لم يتحرك الناس صوب الصوفية وانما هي التي سعت اليهم، وافدة من مصر والمغرب والحجاز. وفي بلاد كالسودان، خالية تماما من معاهد العلم والمعرفة، لم يكن بد من تقبل التيار الوافد ـ ليس لانه الافضل او الأكمل وانما على اساس انه الوحيد وحتى عندما عرف الناس ان هنالك مناهج دينية غير المنهج الصوفي، فانهم لم يبدوا بها اي حماس اولا لان معاهدها بعيدة المنال، محفوفة بالخطر وتستلزم هجرة تطويلة ـ مسافة وزمانا ـ الى معاهد الازهر والقيروان. وثانيا لانها تستلزم جهدا اكبر في

(٣) وينقل ان الشيخ محمد الهميم في حالة الجذب الالهي زاد في نكاحه من النساء على المقدار الشرعي وهو اربع وجمع بين بنات الشيخ بان النقا الضرير كلثوم وخادم الله، فانكر عليه القاضي دشين حين قدم الشيخ الهميم اربجي وحضر صلاة الجمعة باربجي فلما اراد الخروج من الجامع قبض دشين لجام الفرس وقال خمستين وستة وسبعة في كفاك حتى جمعت بين الاختين فقال له ماتريد؟ قال اريد ان افسخ نكاحك لانك خالفت كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال الرسول اذن لي والشيخ ادريس يعلم وكان الشيخ ادريس حاضرا فقال لدشين اترك امره وخل بينه وبين ربه

فقال دشين ما نهمل امره وقد فسخ نكاحه فقال الشيخ الهميم لدشين فسخ الله جلدك فقال انه مرض مرضا شديدا حتى انفسخ جلده (الطبقات ص ٩)

الدرس والتحصيل، فى حين ان بلوغ درجة الولاية فى الصوفية لا يحتاج الى اكثر من الاخلاص، وتنقية النفس، وانتظار الفيض (٤) هذا بجانب ان المنهج الصوفى كان حلا ناجعا لتناقضات رجل الدين فى ذلك العهد، فقد كان الصوفى يجمع فى شخصه بين شخصيتى الولى والسلطان. وفى السودان بالذات، تمت على مراحل متفاوته تجربة ان يعيش رجل الدين حياة دنيوية متكاملة الابعاد دون ان يتعرض للوم او انتقاص، وتفسر تصرفاته بكونها حالة حدث او شطح او غيرها من حالات الصوفية. ويخبرنا كتاب الطبقات ان كثيرا من المتصوفة لبسوا الحرير، وجلسوا على الريش، واكثروا من الزوجات والسرارى، ولم يتعرضوا مع ذلك للوم او تثريب وعلى العكس من ذلك كان هذا السلوك مفهوما ومبررا لدى العامة والخواص

وعلى كل فان ما تلقاه السودان من مبادىء التصوف، لم يكن اكثر من قشور وتسميات، فرغم انتشار الصوفية الواسع، لم يظهر طوال عهد الفونج صوفى واحد يتفهم روح التصوف الاصيلة ويقرأ كتبه الاساسية، ويعمل وفق فلسفته - لقد عجزوا عن تفهم اهم ركنين من اركان التصوف الاسلامى، وهما الحب الالهى ووحدة الوجود «٥» واستعاضوا عنهما بمظاهر تقليدية وسطحية للحب النبوى تتلخص فى المديح الذى يتراوح بين المحبة والتشوق وبين التمجيد المتزلف لا اكثر، مضيفا لشخص الرسول المعجزات التقليدية الموسومة بطابع المبالغة والتهويل.

ان السمة الاساسية لعصر الفونج هى سمة الاكتفاء بتلقى القشور الثقافية لكنه يظل عصرا اصيلا ومبدعا من حيث انه قام بملء الفراغات وسد الثغرات واضاف من عنده الى اللغة العربية والممارسات الاسلامية بحيث بدأ فى الظهور وجه متميز القسمات لسودان القرنين السادس والسابع عشر وبعكسه يبدو العصر التركى الذى تلاه عصرا مقلدا وغير اصيل فقد كان مثقفوه يرون فى ثقافة العهد التركى غاية الكمال ونهاية الابداع وقصروا طاقاتهم فى ترسم آثارها فى كل مظاهر الحياة الثقافية

(٤) فمثلا كان ابوالقاسم الجنيد بن على النيل اميا لم يقرا وكذلك عووضه شكال القرح ومحمد الهميم بن عبدالصادق مكى اميا لم يقرا الا من الناس الى الزلزله، وحتى حسن ودحسونة كان متهما فى معرفته بالقرآن (الطبقات، ص ٥٠) وهؤلاء الاميون او المشكوك فى علمهم كانوا اكبر اولياء الله فى زمانهم ولا زال لهم اتباع ومريدون

(٥) يشذ عن هذه القاعدة صوفى واحد هو السيد الشيخ احمد الطيب بن البشير مؤلف كتاب الحكم المسمى بالجوهر الفريد فى علم الوحدة والتوحيد والكتاب يعرض فى معظم فصوله نظرية وحدة الوجود ولكن بطريقة تغلب عليها الاستشهاد والاقتباس بحيث يبدو شبيه بالمختارات

العهد التركى

بدأ الغرو التركى عام ١٨٢١م، وتداعت امامه بسرعة فائقة كمية الدويلات التى كانت تعمر الاراضى السودانية بما فيها مملكه الفونج التى كانت قد شاخت وتسوست واستنفدت طاقاتها فى صارعات عديمة المعنى . ومع ان الغرو التركى انتصر بسرعة الا انه تعرض لمقاومة باسلة من القبائل السودانية التى كانت تواجه بالسيف والرمح، سلاحا . . لم يسبق لها مجرد السماع به، تقوم باعدادها القبية الصغيرة، جيشا منظما (وبمقاييس عصره) حديثا

استمر الحكم التركى ستين عاما، لم تفلح فى اقناع الشعب بانه مهزوم، وان اسيادا يتسلطون على اقداره ومصائره. فقد ظل على الدوام ساخط ومتحفزا ومتعاليا على حكمه المستبدين وظلت الجماهير تمارس نشاطها الثقافى الموروث دون ان تتأثر كثيرا بالغرو، فبقى الشعر الشعبى السودانى صميما، وظل القصص الشعبى متحررا من التأثير، وظلت الصوفية تمارس لدى اتباعها بنفس الاشكال القديمة.

ومع فشل الثقافة التركية فى التغلغل فى اوساط الشعب الا انها اكتسبت ارضها الخصبة فى القطاع المثقف، اذسرعان ما التف حولها صفوة من المتنورين اصبحوا حملتها والناطقين باسمها والمتكفلين بنشرها بين الناس. وبحركة من القمة تم تغيير فى الولاء الثقافى، فسدت تقاليد العهد الفونجى، لتحل محلها تقاليد جديدة تركية الاساس، ولكنها سودانية الصبغة. . وشجبت بضربة واحدة اساليب التتلمذ القديمة لتخلفها الاساليب الجديدة الوافدة، فاصبحت مصادر العلم تتدرج من حلقات العلم التى يعقدها العلماء فى منازلهم، الى المدارس التى فتحت (ثم اغلقت)، الى الازهر الشريف. وعبر هذه السلسلة المتفرعة، استطاع قدر محدود من العلم والثقافة ان يجد طريقه الى السودان فقد اصبح السفر الى الازهر سهلا وميسورا واصبح التعليم نفسه مورد رزق للمتعلمين. وصار للطلاب السودانيين اروقة فى الازهر تجرى لهم الجرايات، وتلطف عليهم حياة الاغتراب، وتسهل لهم سبل المعرفة وعن طريق هذه النافذة الجديدة، استطاع السودان لاول مرة، ان يقيم جسرا ثقافيا بينه وبين

● تضايق هذه التسمية بعض الكتاب المصريين خاصة اولئك الذين يعتبرون عهد محمد على باشا مفخرة قومية لمصر وجزءا اصيلا وزاهرا من تاريخها الحديث ولكن الجمهور والكتاب فى السودان تواضعوا على تسمية عهده فى السودان بالعهد التركى بدلا من مصرى تأكيد لغربته عن مصر بوصفه حاكما جنبيا وابقاء على صلات الود مع مصر حتى لا تتسبب بها بصمة فى السودان

منابع الثقافة الاسلامية، فكثر العلماء، وتوفرت الكتب وعندما بدأت الصحافة فى العالم العربى تردد صداها فى اوساط السودان العلمية ولم يتأخر الادباء العلماء السودانيون عن مراسلتها والكتابة اليها

ان نشوء هذا الاتصال الثقافى، تكفل بفتح عيون السودانيين على حقيقة موقفهم من الثقافة العربية خلال الثلاثة قرون السابقة، فنتج عن ذلك ان ترعرع اليقين القديم الذى كان يستنيم اليه المثقف السودانى.. وبدأ يدرك الشقة قد بعدت بينه وبين الاصول العربية فاكتشف ان اللغة التى كان يكتبها اسلافه فى عهد الفونج لم تكن سوى صورة شائهة ومحرفة للعربية الفصيحة، وان التصوف الذى كانوا يتباهون به، ويدعون فيه اعلى الدرجات، لم يكن سوى مظهر اجوف ومنحول، وان المعرفة الواسعة بالفقه والشريعة، لم تكن اكثر من ادعاء مفضوح.. وعن هذا الوعى الجديد بالتخلف الثقافى نتج لدى اجيال السود بين نوع من الحساسية المتهمة تجاه كل ماهو عربى واسلامى - نوع من الحساسية التى تحس صاحبها فى قفص اتهام وتلزمه بالمبادرة الى اتخاذ موقف الدفاع، اما بالمباهاة الفارغة واما بمحاولة التقعر.. وبالفعل بدأ مثقفو الفترة يعملون بجد فائق لردم الهوة الواسعة التى تفصلهم عن العالم العربى، فظهر شعراء وناثرون يكتبون بالعربية الفصحى، وبرز متصوفة يعرفون الغزالى وابن عربى والحلاج، وظهر فقهاء ازهريون برعوا فى مسائل الفقه والشرع.

على مستوى التصوف كان شيوخ الصوفية السودانيين يدعون لانفسهم اعلى مراتب الغوثية والكونية والقطبية، ويجارون بحماس فائق مؤلفات كبار المتصوفة فى العالم الاسلامى فنجد السيد محمد عثمان الميرغنى والشيخ اسماعيل الولى يضعان - بالتعاقب - (الاسرار الربانية فى مولد اشرف الخلائق الانسانية) و (الواردات الملتمسة من الحضرة المقدسة) على غرار مولد البرزنجى . ونجد شعراء الامادیح النبوية يصنفون دواوين (النور البراق فى مدح النبى المصداق)، (ورياض المديح) (وروض الصفا فى مدح المصطفى)، (والجواهر الزكية فى مدح خير البرية) مجاراة للبرعى، كما نجد عشرات من دواوين الشطحات والغزل الصوفى على نهج النابلسى وابن الفارض . ومع ان كل هذه الاعمال محشوة بالتأثرات ولا تخرج عن كونها تقليدا ومجاراة لمؤلفات قديمة، الا انها تصدر فى جو من التباهى والادعاء والتعالى النابع من احساس دفين بالاتهام . ويتأكد لدينا هذا الاحساس اكثر فاكثر حين نقرأ دواوين الشطحات بالذات، ففيها نلتقى بنوع من الشعر هو فى الحقيقة قصائد فخر متوالية تتركز فى الزهو بما للكاتب من مكانة عند الله ورسوله وماتحظى به من تقديم واكبار فى الحضرة

الالهية وتفوق على رصفائه من الاولياء والمحبين.. (٦).

وعلى كل فان هذا الجو لم يكن منفرا بالنسبة لجماهير المريدين والاتباع، بل كان ادعى الى التفافهم حول شيوخهم، واعتزازهم بعلو مكانتهم وكرامتهم، وانقيادهم اليهم انقيادا لايعرف التحرز ولا خطوط الرجعة . وبفضل هذا التلاحم الوثيق بينهم وبين الجماهير، استطاع المتصوفة المحليون ان يحدوا من توغل الطرائق الصوفية الجديدة، التى مهد لها الاتراك، وشايعوها، وحاولوا بثها بين الناس وكان الى جنب هذا عامل مساعد، هو واقعة ان الشعب ظل منذ البداية، فى حالة استخفاف ورفض للاستعمار التركى بمختلف مظاهره.

بما فى ذلك المظهر الثقافى. وربما كان عزوف الجماهير عن الطرق الصوفية الوافدة، تعبيرا غير مباشر عن رفضها السياسى للحكم الوافدين، ونقمتها على النظام القائم . ولكن - كيفما كان الامر، فانه لا يسعنا الا ان نؤكد، ان هزيمة الصوفية الوافدة لم تأت على ايدى الاولياء المحليين لان هؤلاء كانوا انزع فكرا واوفر اصالة، وانما لانهم كانوا بارعين فى الصنعة والتقليد والنقل عن نفس المتصوفة المرفوضين بحيث افلحوا فى استبدال صوفية عهود الانحطاط بنسخة سودانية وطبق الاصل من صوفية عهود الانحطاط

آكل الامر لايعزى الى اصالة فى التفكير، بقدر ما يعزى إلى مهارة فى التقليد، فالصوفية السودانية عجزت تماما عن اضافة اى جديد الى التصوف الاسلامى فى المجال النظرى (وان كانت قد افلحت فى مجال الممارسات العلمية) وظلت طوال العهد التركى نسخة مكررة للتصوف خارج السودان كما ظلت بدع العهد التركى مثلا اعلى احتذاه السودانيون منذ ١٨٢١ والى سنوات كثيرة لاحقة.

اما فى مجال اللغة، فقد وعى المثقفون السودانيون اخيرا، حقيقة الفرق بين اللغة الفصيحة واللهجة المحلية، فعرفوا ان المصرا . بعد ... باسعرب اللهجه الدارجة فى مؤلفات ، لمكاتبات والفتاوى و ... معصر يعتبر مجرد الالمام باصول اللغة وقواعدها نوعا من العلم والثقافة، وانتصارا يغنى عن الكثير، فضلا عن ان التقاء اللهجة السودانية الدارجة بالاذن المصرية، والاذن التركية المتمصرة أثبت ان تلك اللهجة ليست دائما مفهومة، وبالتالى لا تصلح لمخاطبة

(٦) يقول الشيخ اسماعيل الولى

... سلطان اهل العشق جمعا ... سمو لحضرتى بلا احتلال

وهكذا يأخذ بقوة البطش والاقتدار ما احده ابن الفارض باصطلاح عصره وتواضع الناس حين اطلقوا عليه لقب سلطان العاشقين

الاذن الاجنبية التي كانت منصتة سامعة وذو سماحة لهذه التحديات، وجد مثقفو الفترة انفسهم داخل سباق لاهث وسريع عن الالمام باصول اللغة لاثبات موقفهم في ذلك المجال وكنتيجة اولى هذا السباق كتسب السودان عقلية لاجنبي عن اللغة (Mentality of the Lingual Foreigner) فاصبح يحس بغربته تجاه اللغة ويضع نفسه على الدوام في موقف المتعلم وليس موقف المبدع وككل اجنبي اللسان وضع حدا لحريته في الابتكار والتعديل وشرع في التعامل مع القاموس. وقد تبع ذلك ان توقفت المجهودات الباكرة التي استهدفت تطويع اللغة، وحلت محلها ظاهرة التعامل المباشر مع القاموس.

ان هذه الظاهرة هي المسؤولة عن ذلك الفقر الذي تفتخر به لهجتنا المحلية المتمثلة بالتسميات القاموسية لمظاهر البيئة والحياة، وهي بنفس الوقت مسؤولة عن فقر تلك اللهجة في مصطلحات والامثال والكلشيهات التعبير اذا ما قورنت باللهجات العربية الاخرى التي لم يعلها من النمو الخوف من الخطأ او اللحن الدائم الى القاموس لقد تعاملت الشعوب العربية الاخرى مع اللغة، بحرية وانفتحت في نحت بلاغة جديدة ومفردات جديدة، من جسم اللغة الحي اما في السودان فقد تدخلت تلك الحساسية المتهمة لتعوق نمو لغة المحلية، وتمنع عبقرية الشعب وطاقات ابداعه من الانطلاق، وجعلته في حالة عبودية دائمة بالقاموس ليس هذا فحسب، بل ان الاوراد والاذكار الصوفية، التي ذات المتصوفة بقلوب للشعب، اسهمت بدورها الكبير في ربط الشعب باللغة الفصيحة بمفرداتها وتعابيرها وفي العهود التالية، يبدو اثر هذا الوضع بصورة مبالغ فيها لدى بعض المثقفين السودانيين، الذين راحو يلهثون وراء اللغة لاثبات معرفتهم بها، بحيث دخلوا في معطلات وبدون وعي قصد وتعمد لجأوا الى الاعراب والتعريب، ووضعت مؤلفات عن اللهجة السودانية الغرض منها اثبات عروبة اللسان السوداني وصفاؤه، وكانت النتيجة النهائية هذا الوضع، ان صار الكاتب السوداني صيدا سهلا لسحر اللغة، بحيث يكبو ويضيق نفسه، بعد مشوار قصير على الورق، مع الميل الشديد الى الطنطنة البلاغية وهو يتناول اكثر الامور صرامة وجد

وربما كان هذا الخوج المهووف لاثبات عروبة اللسان السوداني، رد فعل اقوى من اللازم لتحديات طفيفة وعارضة، ولكن طبيعة الاستعمار التركي كفيلة

بتفسير تلك الاستجابة القوية، فقد كان حكم الاتراك، انكارا صريحا لعروبة السودان واسلامه. وكان السوداني بنظرهم عبدا رقيقا، ووحشا متبربرا، وليس عربيا بحال من الاحوال، فضلا عن ان العربي نفسه لم يكن في نظرهم شيئا ذا بال. وحتى عندما يتعلم السوداني ويتثقف، ويقف ندا لابرع المتعالمين والمتشاعرين في عصره (٧)، فانه لايثير لديهم الاعجاب او الاحترام، بقدر ما يثير الدهشة والاستكثار ـ انظر الى هذه الدهشة غير المهذبة والتبرير السخيف الذي تقدمه صحيفة (الوقائع المصرية) امام قصيدة للشيخ الامين الضرير: ولعمري ان كل ذي لب يستكثر من اولئك ـ اي السودانيين ـ ذلك.. وننشره للوقوف على حقيقة الدرجة التي هنالك. والتشويق الى الزيادة. من الافادة والاستفادة. ولقد تردد علينا اناس منهم مشغولون بالعلم بالازهر المعمور، هم في غاية التهذيب والنجابة والاستقامة في كل الامور.. نحسبهم ـ لولا انهم كلهم حيلان ـ من حطط الامصار لا السودان.. وبالجملة فالواجب نشر مآثرهم بلغت مابلغت ـ شكرا على تناسي بربرتهم التي لغت.. في هذه الاوقات الحالية، بالهمة الخديوية العالية».

وامام عين ناقدة ومستكثرة كهذه، يبدو سلوك السودانيين مبررا ومعقولا، بصفته رفضا للاستهانة والاستخفاف اللذين قوبلوا بهما من جانب السلطة فضلا عن ان هذا الموقف كان نوعا من الحماية للسودانيين من الاسترقاق الذي كان على رأس دوافع الغزو التركي، ولم يكن للسوداني من عاصم منه سوى اثبات عروبته واسلامه، وعلى كل فان هذا الوضع المعقد، لم ينتج الا فكرا معقدا، وعقدا فكرية فاصبح مجرد الكتابة باللغة الفصيحة انجازا لذاته وبذاته، واصبح تعلمها يرتفع بالمرء الى عداد الصفوة المثقفة، ويضعه في عداد المتعلمين، فنشأ عن ذلك ان انصرف السودانيون عن الكتابة الجادة المطولة، مكتفين بالنذر اليسير الذي يثبت لهم هذا الانجاز.. واتخذ ذلك النذر اليسير

(٧) اطلع بعض مثقفي العصر في طلوع هذا المستوى، فالشيخ الامين الضرير كوفئ على قصيدته المشار اليها هنا من لدن الخديوي اسماعيل بتعيينه رئيسا ومميزا لعلماء السودان والشيخ يحيى السلاوي كتب بتكليف من احمد عرابي قصيدة عن الثورة العرابية (طبعت بماء الذهب ووزعت في شوارع القاهرة، كل نسخة بجنيه ذهبا) والشيخ عمر الازهري فاز بجائزة الجوائز المصرية عن قصيدته

سلوا عن فؤادي مسبلات الذوائب

فقد ضاع من بين القلوب الذوائب

نفثات اليراع للمرحوم المؤرخ محمد عبدالرحيم ص٨٦،٨٢،٩٨

طابعا شعريا خاصة وان العهد التركي كان يحتفل احتفالا شديدا بالزركشة والصنعة في الشعر، فاصبح الشعر مجالا طيبا للسمسطة والنكات البلاغية.. والآثار الشعرية التي خلفها العهد التركي في السودان تحمل ميسم عصرها تتلذذ مطاوع متكتظ بالاستعارات·

الود مأدبة والصدق احوان　　　الصادقون لدى الاداب اخوان

والجناسات

اشعارهم ذلك اشعار بحالهم
فهي الشعار خطوا بالوصل لو بانوا

والتضمين

حتى يقول على عكس الذي زعموا
من ساءه زمن سرته ازمان
هذا وجودهما مستعبد بشرا
اذ طالما استعبد الانسان احسان

وتنتهي دائما بالتاريخ على حساب الحروف الابجدية

لذاك حسن ختام القول ارخه　　　صون المواطن توفيق وعرفان

١٤٦　١٣٧　٥٩٦　٤٠٧
سنة ١٢٨٦هـ

وبهذه الصورة لا يضع العهد التركي بين ايدينا، الا شعرا تقليديا باهت محصور الاغراض، بحيث يتساءل المرء ما اذا كان الشعراء في ذلك العهد يملكون قلوبا ويحسون عواطفا. فالتكلف في اشعارهم ظاهر، والتقليد مفضوح ولعل التكلف النابع من التقليد، لم يبلغ باحد الدس مابلغه لدى صاحب هذه القصيدة، الذي يروي كاتب الشونة انه احد الاخوان الاحباب. وانه زاره فلم يجده، فتحركت قريحته وبعث بهذه الابيات:

سلام على الحل المهذب رأيه	كريم السجايا مستنير السرائر
فما سرنى لا والذى فطر السما	غيابك عن تلك الديار العوامر
صربت حليلى فى سويداى خيمة	وبت مقيما فى حدود نواظرى
وهذا مراد الله قد حل بيننا	فما حيلتى فى دفع مقدور قادر
ولست ملوما فى اشتكائى هجركم	وان كان وجه الحب بين النواظر
شذ المسك والكافور يدريك حا	لهم يشم لذات البعد لا للحواصر
سألتك احمدان تحيوا قتيلكم بوصل	عسى ان تطفى نار الضمائر
فرؤياكم بالعين يشفى لعلتى	ويطرد من عينى الدموع الفواصر

فقد ذهب الرجل فى تقليد شعر الغزل حتى قال ما لا يقال فى مجال التراسل بين الرجال وما كان اغناه عن البكاء والعويل وتشكى الهجر والغرام والمسألة بعد لم تخرج عن زيارة لصديق غائب.

ومهما يكن من ماحمله العهد التركى ليس شعرا تلخصت فيه عبقرية الامة وتضافرت على انتاجه جهود الصفوة من مثقفيها، لانه شعر فئة واحدة من فئات الشعب هى فئة العلماء. وخلف هذا الوضع الشاذ، توجد ظاهرة انعدام اى نوع من التعليم سوى التعليم الدينى الذى يجعل من المرء عالما ورجل دين، ويربطه بانواع من التقاليد، لا ترى فى شعر العاطفة نشاطا خليقا بمقام العالم، ومكانة رجل الدين ولايقتصر اثر هذا الوضع على هذه الناحية، وانما يبرز فيما بعد فى صورة اخرى هى تلك المكانة الرفيعة التى يوليها السودان للشعر والشعراء دون بقية الفنون الادبية، ودون بقية المشتغلين بالادب، فقد ارتبط الشعر بالطبقات القائدة فى المجتمع وصار هواية الاكابر والممتازين الامر الذى يفسر لنا كثرة الشعراء طوال عهود تاريخه المختلفة، وغلبة الشعر على بقية الفنون الادبية.

ولايقتصر اتجاه التقليد على الشعر، وانما ينعكس على كل كتابات العهد التركى فنلتقى فيها باثر التقليد والانقياد الى بدع عصور الانحطاط، والتعامل معها كقيمة ومثل اعلى ففى الاثار النثرية، نلتقى بالوان متفاوتة من السجع والمحسنات اللفظية وفى مؤلفات المتصوفة نلتقى بمصطلحات العهد الدينية، وخرافاته واساطيره المنسوبة الى النبى كمعجزات، واذا كان للصوفية من فضل او ميزة، فان ميزتها الكبرى هى احتفاظها بحريتها امام اللغة، بعكس الفقهاء الذين استسلموا بانقياد تام للاصول القاموسية، فقد استطاع الصوفى ان

يخطىء ويتكو وتسلق حائط اللغة ويتكىء على صيغ وتعابير دارجة دونها خوف ربما لان وضعه كمتلق للمعلم «اللدنى» يحرره من الخوف ويعصمه من ترقب الانتقاد

جملة لقول ان العهد التركى، كان عهدا مقلدا وغير اصيل، ولكنه يظل واحدا من اهم عهود التاريخ السودانى، فقد افتتح به الاتصال المباشر بين السودان ومنابع الثقافة العربية، وعاد السودان يواكب المنطقة العربية، ويتأثر بما يجرى فيها بعد ان فوتت عليه قرون العزلة فرص التأثر والتلقى الصحيح. ومنذ هذا التاريخ يبدأ السودان اتصاله الوثيق بالعالم العربى فيشاركه انتصاراته ومحنه وازماته ويتعرض معه للغزو التركى والغزو الفرنسى والاحتلال الانجليزى ويشترك فى الكفاح ضد الاستعمار، وينال استقلاله فى تاريخ مقارب لاستقلال البلاد العربية، ويعيش معها ازمات فلسطين والجزائر والعدوان الثلاثى وثورة اليمن والعدوان الاسرائيلى الاخير، ولكن هذا الاتصال الوثيق يتخذ منذ وقت مبكر صورة غريبة ـ وان كانت متوقعة ـ هى صورة التطلع الى مصر، ومصر بالذات دون بقية الاقطار العربية

ان هذه الصلة لها اثرها الحاسم على الفكر السودانى خلال وبعد العهد التركى والى عصرنا الحاضر، فمنذ ذلك التاريخ تلعب مصر دورا اساسيا فى توجيه الفكر السودانى والهامه، واحيانا اخرى فى خنقه وتبديد طاقات الابداع فيه. وقد فعل الحوار وتشابه البيئة فعله الحاسم فصارت بعض قضايا السودان تحسم بطريقة غير مباشرة عن طريق الخبرات والمناقشات المصرية، بحيث نجد الحل جاهزا متى ما نشأت مشكلة او استحكمت ونتج عن ذلك ان تابع السودان مصر فى التأثر بمختلف المدارس الفكرية وتابعها فى خبراتها الكفاحية وتاريخها السياسى العام، بحيث تهيأت لدى اجيال السودانيين نفسية متلقية وغير رائدة تصوب انظارها دائما الى ادق دقائق الشؤون المصرية تتقمص وتحب واثناء تعرضنا للعهود اللاحقة سيتضح لنا الاثر النافع والضار لهذا الوضع الفريد وسوف نرى اى مكان تحتله مصر فى فكرنا وتاريخنا.

المهديه

انتهى العهد التركى نهاية عنيفة على ايدى جموع المهدويين الذين دوخوا الجيوش التركية ـ الانجليزية القيادة ـ فى مواقع امتدت عبر اربع سنوات،

وانتهت بسقوط الخرطوم ومقتل غردون وارتداد حملة الانقاذ. وعلى نقيض التركية، بدأ في السودان عهد من الحكم الوطني هو بحق بداية لتاريخ السوداني الحديث. فمع ذلك العهد تبدأ في النشوء معظم ظواهر الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية التي تعطي لسودان اليوم قسماته المميزة فوق خريطة الكرة. ومع ذلك العهد ايضا، بدأ في التبلور حصيلة شعب من حركات عميقة عمل حركت البلاد حلالها حكم القبيلة، وحكم الدويلة، والحكم الاجنبي والتقت بتيارات الحضارة النابعة من البلاد والوافدة عليها من المغرب الاقصى، والشرق الاوسط، وآسيا الصغرى. واهم من ذلك، يفتتح العهد المهدوي، طريق الوعي القومي فيدخل على الجماهير السودانية، شعورا عاما بالانتماء الى اصل واحد، وبالوقوف في صف واحد والتوجه الى مصير واحد.

جاء الحكم المهدوي على انقاض التركية فكان ضروريا ان يهدم ويقوض، قبل ان يبدع ويشيد وكان ضروريا لنمو الثقافة المهدوية ان يتم بحرص فائق اقتلاع جميع جذور التركية من ارض الثقافة السودانية، وان يتم القضاء على البدعة والتحريف والخرافة، قبل ان يبدأ التوجه الثقافي الجديد. وقد بذل الثوار اقصى الجهد لتطهير الجو الثقافي من الاثر التركي، واحرزوا نجاحا سريعا وكاسحا في معظم الاحوال، ولكن الامر مع ذلك لم يكن سهلا ولا يسيرا. فقد تمكنت الثقافة التركية في السودان خلال ستين عاما من السلطة، واستطاعت ان تفرض لنفسها ذيوعا ورواجا وان تفرخ انصارا وحماة ومحبين. ومن الناحية الاخرى كان الثوار يجابهون هذه الحضارة الذائعة، باداة ثقافية ضعيفة وناقصة، فقد كان انصار الثورة في الغالب من الناس البسطاء الذين لم ينالوا حظا يذكر من التعليم وكانت ايديهم خلوا من الثقافة التي تصلح بديلا سريعا للثقافة المهزومة. وكان المثقفون يتخذون موقفا مستخذيا من الثورة، فمنهم من صلح مع الاتراك، ووضع الرسائل في تكذيب المهدي ومنهم من بقى على نوع مريب من الحياد، حتى سقطت الخرطوم. فتحول بسرعة غريبة الى الصف المهدوي (٨) وبالرغم من هذا الوضع غير المتكافىء فقد قدم الثوار كل ما بامكانهم لدحر الثقافة الدخيلة، وقد استطاعوا ان يقدموا انجازات جليلة في ذلك المجال، فقبل الاعلان الاول للثورة على السلطة التركية، كان المهدي قد اعلن الثورة على حضارتهم ومنذ الوهلة الاولى شرع في الغاء تلك الحضارة واستبدالها

(٨) ومع ذلك فقد وقف مع الثورة – ومنذ اعلانها الاول – صفوة من مثقفي العهد، كالشيخ محمد الخير والشيخ الصديق ود بدر والاستاذ المصري عبدالرحمن واحمد المكاشفي وغيرهم كثير

بأشياء من ابتكاره الخاص او من الاصول الاسلامية العريقة

اما الاسلوب الاول اسلوب الابتكار والتجديد، فقد اتخذ صورة محاوله شجاعة لابداع حضارة سودانية تخلف الحضارة الاجنبية المدحورة، وتسد الفراغ الذي خلفته ومن هنا تمتلىء الايام الاولى للمهدية بالابتكارات والاستحداثات على كل نطاق، بحيث يصح الرغم بان عبقرية الشعب تفجرت تلك الايام بصوره لانظير لها في اى من عصور تاريخ السوداني اللاحقة وكان المهدى انسب القادة، واكفأهم، لقيادة الشعب في عصر من التغيير السريع، ومن الصعوبة في مجال ضيق كهذا، ان نحصر كل ما ابتكره الشعب على عهد الثائر الملهم ولكن لعل هذه النماذج تكفي للتدليل

(أ) كتب المهدي في احد مناشيره داعيا الى نبذ الملابس والشارات التركية «فمن لبس اعدائه - اى اعداء الله - الطرقيته والبورى وكل الذي يكون من علاماتهم ونساتهم فاتركوه» الجزء الاول صفحة ٤٨ وعوضا عن ذلك لا ريب لمحرمه ابتكر القائد الزي الوطني المهدوي و الذي يتكون من المرقعة المتعددة الالوان «اتركوا التفهت وفراوى الريف لان موت النفوس حياتها و سموا الحب المرقعات»

(ب) وكتب داعيا الى نبذ الالقاب التركية «فلا تطلبوا العزة بالتسمى بالشيخ والسيد فانكم تسمعون ان جميع الانبياء والمرسلين و الصحابة والتابعين لم يسم احدهم بالشيخ تعصبا فلا ترغبوا فيما تسمى به الظالمون والترك المرصودون فهم لايرضون الا ان يسموهم الوظائف فلا تتسموا بذلك» جزء اول صفحة ٥٥ بدلا من تلك الالقاب جاء العهد المهدوى بلقب انصارى للمواطن العادى ورأس مية وامير وجهدى للرتب العسكرية

(جـ) وكتب ايضا في منشور وجهه الى كتابه وولاته على الاقاليم «الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وعلى اله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن عبدالله اعلاما منه لجميع كتاب وحكام المهدية وانصار الدين اما بعد فالذى نعلمكم به ان الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز ﴿واحسنوا ان الله يحب المحسنين﴾ فحيث فهمتهم فلا بد من تحسين الخط وتجويده وعدم تغيير الحروف وقلب معانيها فقد اهلك الله المغيرين فاتركوا خطهم ولا تسلكوا سنتهم واظهروا السين من بسم الله الرحمن الرحيم والشين من الشيطان الرجيم واعطوا الحروف حقها كما انزلت وحسب ما عهد فيها سلف وتحقيق الكاف والهاء على هذه الهيئة واياكم وكتابة الترك».

ومناشير المهدى التى مازالت موجودة في صورها الاصلية، ومكاتبات الخليفه ووثائقه، كلها تفصح عن حقيقة كبيرة هي ان العهد المهدوى افلح في خلق فن خاص به، ومن المستحيل الفصل بين هذه الحقيقة CALLIGRAPHY وبين العناية والتفوق المدع الذي يبديه الفانون السودانيون المعاصرون في مجال الخط العربي (٩).

ولم تقف دعوة المهدى الى حضارة جديدة عند هذا الحد، بل تجاوزته الى عشرات من شؤون الحياة فاحدثت فيها ثورة وتغييرا وكان الثائر الاول مهتما غاية الاهتمام، وجادا غاية الجد في محاولته ابداع حضارة سودانية اصيلة، متحررة من التقليد ومن التأثير التركي ومع ان موت المهدى المبكر قد اسهم في اضعاف هذه الحركة قبل ان تؤتي اكلها، الا انها بقيت في مكان ما من العقل السوداني، واليها يمكننا ان نعزي حركة القومية السودانية على ايدي جيل اليقظة وجيل الوعي فيما بعد.

اما الاسلوب الثاني اسلوب العودة الى الاصول الاسلامية الاصيلة، فقد تجد صورة متشددة من صور الرفض لكل ماهو دخيل ومحرف ومبتدع، مستعيضا عن ذلك بالاصول، ومبشرا بنوع من العودة الى المصادر الاسلامية شبيه بدعوة الوهابية في الحجاز روى عن عبدالصمد حاج شرفي قوله «الحاج مرزوق رجل شيقي عالم، كان قابل المهدى في قدير وسأله مرة قائلا: معلوم ان المذاهب هي اربعة الحنفي والشافعي، والمالكي، والحنبلي، فما هو مذهب المهدى؟ فقال له. هؤلاء الائمة جزاهم الله قد درجوا الناس واوصلوهم الينا كمثل الراوية وصبت الماء من منهل حتى وصلت صاحبها للبحر فجزاهم الله خيرا فهم رجال ونحن رجال ولو ادركونا لاتبعونا وان مذهبنا هو الكتاب والسنة ونتوكل على الله وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأى المشايخ»

ولم يقف الامر عند هذا الحد، بل بدأ المهدى سعيه الجرىء نحو توحيد المذاهب الاربعة في مذهب واحد باختيار الاصلح من كل منها، معتمدا في ذلك على الكتاب والسنة ومتحررا من اى عنصر من عناصر التضاؤل والاستجداء التي تثيرها الاسماء الكبيرة، والتقاليد العريقة، عملا بقوله «هم رجال ونحن رجال» وبهذه النظرة الواثقة يفتتح العهد المهدوى صفحة ناصعة في تاريخ التلقى المباشر عن الاصول، فاذا كان عهد الفونج قد اكتفى بالقشور

(٩) وبالذات محاولة استخلاص الامكانات التعبيرية في الحرف المخطوط كما قام بها الاستاذ الصلحي وشبرين

يا طالما صدنا بها صيد الغضنفر للثعالب
جيشا يرى سلاحه كالمزن اذا ما المزن صائب
وسواكن تدرى بنا انا لدى الهيجا نضارب
بالمشرفى كأنه وقع الصواعق فى المضارب
زمنا رصدنا نحوها تبدى العجائب والغرائب
وبثر فى ارجائها كالليث اذ نشب المخالب
ولطالما برزت لنا منها العساكر والكتائب
من كل فج يمنة بل يسرة من كل جانب
فتحاذتهم حيلنا ترمى بهم رمى الثواقب
البيض تلعب فيهمو فوق العمائم والعصائب
حتى اتت اخبارنا من مصر تكتبها الجوائب

(عن نفثات اليراع ص ٩٣)

ولكن الانتصار الحقيقى الذى احرزه المهدويون فى هذا الميدان يتمثل فى شخص الشاعر عمر البنا، الذى استطاع ان يتمثل المرحلة بطريقته السدحة ويتغنى بها فى ديوان كامل ينبض من اوله الى اخره بدفق حماسى وهدر وسلس. ووكالعادة نستشهد بقصيدته الشهيرة

الحرب صبر واللقاء ثبات والموت فى شأن الاله حياة
والجبن عار والشجاعة هيبة للمرء ما اقترنت بها العزمات
والصبر عند النفس مكرمة ومقدام الرجال تخافه الوقعات

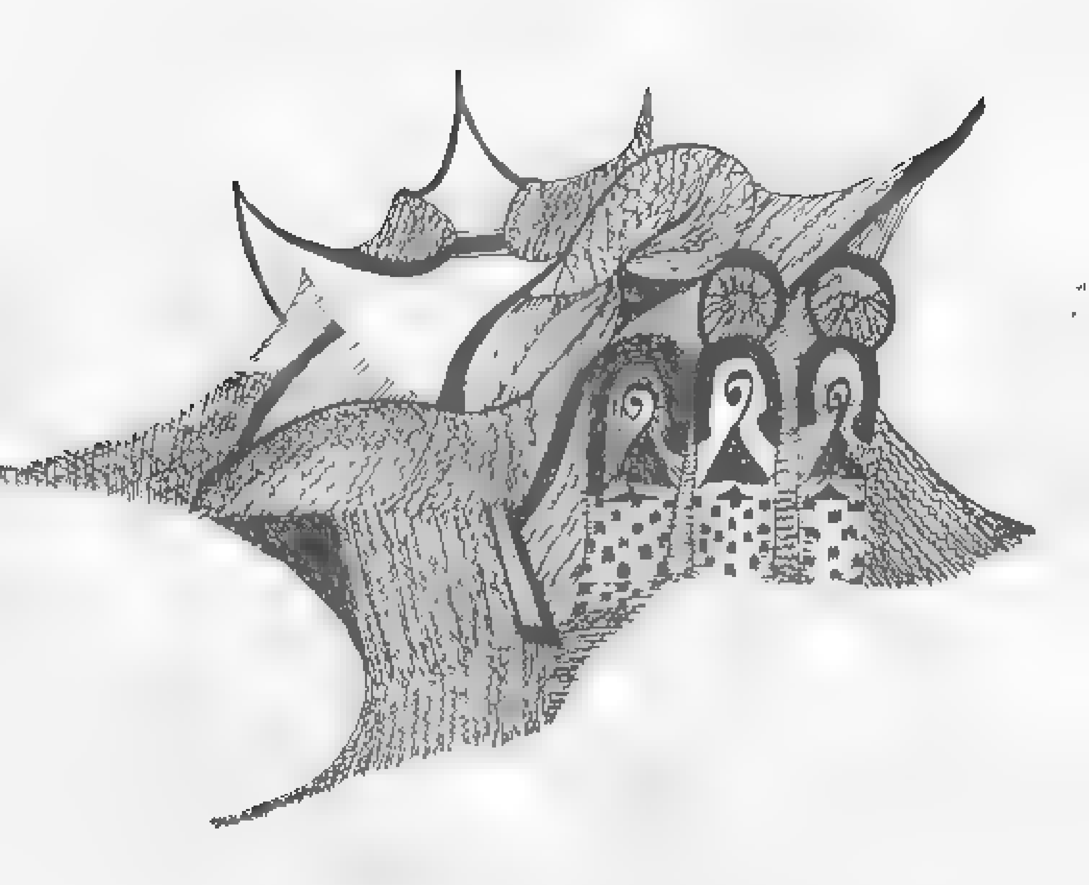
قد حاز هذا الافتخار جميعه صحب الامام السادة القادات
قوم اذا حمى الوطيس رايتهم شم الجبال وللضعيف حماة
ولباسهم زرد الحديد ولبسهم شهدت به يوم اللقا الغزوات

يا أيها الانصار ان صنيعكم شكر الاله له وتلك هبات
اعليتم دين الاله وملبكم لا الثبات تزينه الوثبات
وشرحتمو صدر الرسول محمد بالفتح فانكشف به ظلمات
وسقيتم الاعداء كأس منية عبراتها ما مثلها عبرات
فالفخر فخركم وفخر سواكموا محض ادعاء ماله اثبات

فهذا الشعر ـ بالمقارنة مع اشعار العهد التركي ـ يبدو فريدا في طواعيته وسهولته واقترابه من مستوى الفهم الشعبي، بل هو شعر شعبي نظم في لغة فصيحة وقد استطاع هذا الشاعر ان يصنع لاشعاره الوطنية سيرورة فريدة في بلد غير متعلم غير واسع الالمام بقواعد اللغة الفصيحة والشعر الفصيح، وفي عهد كان فيه الشعراء الشعبيون ـ امثال الشيخ محمد التويم وابوشريعة ـ يخاطبون وجدان الجماهير الثائرة باللهجة المحلية المشحونة بتيارات عاطفية اكبر والصق بالوجدان الشعبي.

وعلى كل فان العهد المهدوي يمثل فاتحة فريدة لتاريخ السوداني الحديث ولكن المؤسف انه يبدو مبتورا في كل المجالات، فقد كان موت المهدي الباكر ضربة قاصمة على الثقافة السودانية اوقفت تطورها وعاقت نموها بطريقة مفاجئة، وعلى عكسه كان خليفته قد اقحم نفسه في منازعات سياسية مع قبائل النهر، التي ينتمي اليها معظم المثقفين في السودان وتحول الى رجل متربص كثير الشكوك وعلى يديه تم اضطهاد المثقفين والعلماء السود بين وحبسهم وتشريدهم والتضييق عليهم في الارزاق، مما جعل من مدة حكمه عهدا معطلا من الناحية الفكرية، وسرع نهايته الفاجعة على ايدي قوات الاحتلال البريطاني.

ان هذه العهود الثلاثة قد اسهمت بدورها الحاسم في صياغة الفكر السوداني وتشكيله وتقرير اتجاهاته وسوف يظل تأثيرها واضحا وملموسا مهما اتسعت المسافة الزمنية بينها وبين اجيال السودانيين، فما زال جيلنا الحاضر يعاني من التأثير الصوفي الذي جاء مع عهد الفونج ومن الحساسية تجاه اللغة وظاهرة التطلع الى مصر كاثرين من اثار العهد التركي ويتشوق مع ذلك الى ابداع فكره الخاص جريا على سنن المهدية وسواء قدر هذه الاثار ان تختفي ذات يوم او تظل على نفس مستوى قوتها الحالي، فانه يظل حقيقة واقعة ان سودانيي الفترة ما بين ١٨٨٠ الى الان تأثروا ويتأثرون بتلك الاصول الاصيلة للفكر السوداني والدراسة الموسعة لتلك الحقبة كفيلة بان تكشف لنا عن مدى ذلك التأثر وابعاده، وخصائصه ومزاياه.



الفكر السوداني بعد ١٨٩٩

تحركت الاحداث في السودان بعد عام ١٨٨١ بسرعة مذهلة، وفي جو من السحر الباهر والغموض فمنذ الانتصار الاول للثورة المهدية في ابا، تعاقبت الاحداث الفريدة وسارت الثورة من انتصار الى اخر حتى تم النصر بسقوط الخرطوم في عام ١٨٨٥ وقبل ان يستوعب السودان ماحدث، مضى رجل الثورة الاول في لقاء ربه وخلفه على القيادة الخليفة عبدالله التعايشي، فانحرف بالثورة في ظروف خطرة وحرجة وقبل ان يفيق الشعب من دهشة المباغتة، كانت جيوش كتشنر تصك ابواب السودان، وتهدم قبة المهدي بالقذائف، وتحطم اقوى واصحم جيوش المهدية في موقعة كرري

لقد تم كل شيء في جو من الدهشة الحالمة وعدم التصديق - انتصرت الثورة قبل ان يفهمها الناس وانحرفت دون ان يصدق الناس واندحرت بصورة فاجعة قبل ان يستوعب الناس الدرسين السابقين وتجربة الهزيمة القومية تجربة متكررة في حياة كل امة، ولكنها تتفاوت من حيث النتائج والاثار وقد كانت هزيمة الثورة المهدية في ١٨٩٩ واحدة من تلك الهزائم التي تعمر لاجيال، تاركة على واعية الشعب وضميره اخطر الاثار

ان هزيمة المهدية لم تكن حدثا عاديا، ولا هزيمة عادية ولم تكن مجرد هزيمة لثورة واستبدال نظام بنظام ولكنها كانت تعني انهيار عالم كامل من الاحلام المقدسة التي شادها الشعب وامن بها - احلام اقل مافيها ان الحق سينتصر ويغمر العالم، وان العدل سيسود الدنيا وان الخير سوف يفيض وان الذئب، في النهاية، سيرعى امنا مع الغنم، والى جانب ذلك كان هنالك الوعد الطموح بان السودانيين سيكونون انصار الله في العالم وحملة رسالته الى الاقاصي البعيدة وان هم السيادة في الدنيا والشهادة في الاخرة ثم فجأة انهار كل شيء . بطل السحر وافرغت المسحرة من كل محتوى، وسارت جيوش «الكفرة» فوق جثث الشهداء وعلى انقاض القبة المقدسة، وانهزمت الفئة المؤمنة التي لم يكن مقدرا ان تنهزم

ان هذا نفسه قد استغرق وقتا وجهدا لكي يصبح مفهوما لدى جماهير الشعب فقد ظل قطاع ضخم من الجماهير يؤمن لسنوات عديدة بان المهدية لم ولن تنتهي وان الهزيمة نكبة مؤقتة وامتحان على المؤمنين غير عسير، وان الله في

النهاية ناصر حزبه واحد بيد حده ولكن هذا الاقتناع بقي محصورا في القطاعات الشعبية ذات الاستعداد الخرافي. وظل يتناقص يوما بعد يوم امام ضغط الاوضاع الماثلة حتى اعلن عن وجوده لمرة اخيرة عام ١٩٠٧ في ثورة ودحبوبة المهدوي المتحمس وباخماد تلك الثورة واعدام قادتها بدأت الامور تتغير.

ومع ان التسليم بالهزيمة استغرق وقتا اخمد متفاوتين الا انه كان مرعبا حين حدث فقد انغمست الجماهير في حالة من الاستسلام والخذلان وتردت في وهدة اليأس والقنوط. بحيث اقتنعت بينها وبين نفسها بان المنتصرين الذين تمكنوا من دحر المهدية، لا بد ان يكونوا جنسا اعلى من جنس البشر ـ جنسا اختصه الله بمزايا لا حصر لها وبسط له السيادة على العالمين وكنتيجة هذا الموقف شرعت الجماهير في اسباغ كافة الفضائل والميزات على الغزاة الانجليز، واصبحت تتفحص اعمالهم وسلوكهم بنوع من الرضا والاعجاب

وبالرغم من ان المنتصرين لم يكونوا الانجليز وحدهم «فقد كانت غالبية الجيش من الجنود المصريين» الا ان هذا الموقف كان لا بد منه لاشباع رغبة الشعب في التعزي الباطل فمن ناحية، كان نفس الجنود المصريون قد انهزموا قبل بضع سنوات، امام نفس الرجال الذين استشهدوا او انهزموا في كرري ومن الناحية الاخرى كان الانجليز في الواقع سادة الموقف والحكام الفعليين لمصر وفوق هذا وذاك، كانت الرغبة في تبرير الهزيمة تدفع الجماهير السودانية في هذه الدعوة المفصحة لاويه في ذلك عن الوقائع والحقائق.

ومهما يكن من امر، فقد ظلت حالة الاستسلام هذه مقترنة بنظرة التقديس للغزاة زمنا طويلا وتأثرت بها ثلاثة اجيال من السودانيين هي

اولا الجيل المهدوي المهزوم اى جيل الرجال الذين كانوا في قمة وعيهم أثناء الثورة واسهموا بطرائقهم الخاصة في صنع احداثها ومعاصرتها

ثانيا جيل ورثة الهزيمة الجيل الذي قضى طفولته وصباه في عهد المهدية وتلقى ثقافة مهدوية وشهد اطرافا من حوادث العهد

ثالثا جيل احفاد الهزيمة وهم الرجال الذين ولدوا عقب او عشية الاحتلال في منحنى القرن التاسع عشر ونشأوا في عهد الاحتلال وتثقفوا على يديه في معاهده ومدارسه النظامية.

ولكي ندرس اثر الهزيمة على هذه الاجيال الثلاثة، لا بد لنا من الحديث عن كل منها على حده:

المهزومون :

لاشك ان رجال العهد المهدوي لم يكونوا كلهم من المتحمسين للمهدية المؤمنين بها ، فقد كان هنالك قلة من الذين لم يؤمنوا ايمانا حقيقيا ولكنهم تظاهروا بذلك وكان هنالك اغلبية آمنت بالمهدية أصدق الايمان ولكن ايمانها تضعضع وضعف امام الانحراف الخطير الذي تردت فيه الثورة على يدي الخليفة عبدالله فاصبحوا من الساخطين الذين تكون منهم المعارضة بمعنى آخر كانوا مهدويين صميمين ولكن بلا ولاء لخليفة المهدي ولاشك انهم كانوا بصورة او باخرى يرجون سقوط الخليفة شريطة ان لا يتأثر الدعوة المهدوية بذلك وان جانب هؤلاء كان هنالك المؤمنون الى حد التعصب ، المتحمسون الى حد الشراسة والذين لم يكونوا ليقبلوا اى نقد للخليفة ويلتزمون التزاما حرفيا بنصوص البيعة الاولى

وحين سقطت امدرمان في يد الجيش الغازي تصرفت كل هذه الفئات حسب مستويات ايمانها بالمهدية وولائها للخليفة فقام اعداء الثورة الذين ظلوا طوال عهدها في بطن والخفاء باعلان ابتهاجهم وفرحهم لانتصارها ، وهتفوا للجيش الغازي ... بشارة الهزيمة وغنى احدهم ... الشيخ احمد الشاعر معبرا عن بهجته بالانتصار وشماتة بالمدحورين في هذا النظم الركيك

بشرى لجيش بالفتوح لقد ظفر	بالنصر فى زمن فنشر من ظفر
وتركنا السودان لسنا ان نرى	الا التعدى والعتو كما شتهر
حتى رأى ملك البلاد بأنه	لاشيء غير الحرب عجل وانتذر
بقيادة الشهم اللوا سردارنا رجل	السياسة فى الحروب الكتشنر
هل للخليفة فر بعمرك باحثا	من قبل ان يأتى زمان لا مفر

اما المعارضة المهدوية التي كانت تتمنى سقوط الخليفة فقد وقعت في حيرة لم تمض ولكن سرعان ما تخلصت منها بعد الايام الاولى للغزو ، ووضعت كل امكاناتها في خدمة العهد الجديد ، وبضمير مرتاح ، والشيء الصحيح هو ان هذا الفريق كان يضم اكابر رجال الادارة والقضاء في عهد الخليفة رائدا مستشاريه ونصحاءه ولكن ذلك لم يمنعهم من توظيف طاقتهم في خدمة الفاتحين ، بل عاد قضاة المهدية السابقون ليتسنموا أعلى مراكز القضاء و الافتاء

فى الدولة الجديده، فأصبح شاعر المهدية الاكبر محمد عمر البنا، مفتشاللمحاكم الشرعيه، وصار بابكر بدرى موضع ثقة الاداريين الانجليز، ثم مفتشا للتعليم بمصلحة المعارف

وقد كان هذا الفريق اخطر من غيره اثرا واشد نفوذا فقد كان يضم قادة الرأى وصفوة المثقفين وخيرة مااخلفه العهد المهدوى من رجال. وكان يجمع بين يديه الى جانب السلطة الاجتماعيه العليا اعلى سلطة للتوجيه الدينى، خاصة وانه كان يجمع معظم الفقهاء والعلماء فى البلاد. ولذلك فان تحول هذا الفريق الى خدمة الحكومة الجديدة كان يعنى بطريقة غير مباشرة الترويج للحضارة الغربية الوافدة واعلان نموها لدى السلطات الروحية والاجتماعية ليس بالقول فقط وانما بالعمل وبالمباشرة فقد تعلم اولئك السادة قواعد التدريس المنهجى الحديث واصبحوا اساتذة فى المدارس، وقضاة فى المحاكم، كما تعلموا الى جانب ذلك اصول السلوك فى المؤسسات العامة وكيفية اقامة حفلات الشاى الخاصة على الطريقة الانجليزية. وبلغ بهم الحماس والولع بالحضارة الجديدة ان تخلصوا من نزعات المحافظة التى تمليها عليهم ظروف السن والعصر، واصبحوا اكثر تحررا واستعدادا للتقدم حتى من الجيل الذى تلاهم. ومن الامثلة الموحية فعلا، ان بابكر بدرى (احد افراد ذلك الجيل) كان اول من افتتح مدرسة لتعليم البنات، وانه ظل محاربا من قبل تلاميذه بدعوى انه يدخل على السودان بدعة استعمارية رديئة. وبقى الحال على ذلك ردحا من الزمن حتى جاءت الاجيال اللاحقة لتعترف له بالمبادرة والاحسان

لقد كان انتشار الحضارة العربية فى السودان حرى بان يتأخر ويضيق لولا هذا الموقف لاولئك الرجال، فقد ساندوها بحماس، ودافعوا عنها وعملوا الجهد ومافوق الجهد لتغلغلها وذيوعها. ولكن المفارقة تأتى من كونهم ظلوا الى النهاية محرومين من اى لقاء حقيقى بالجانب الثقافى منها. ان احدا منهم لم ينجح فى تعلم اللغة الانجليزية وبالتالى التزود من الثقافة الغربية، خاصة وان الترجمة لم تكن قد بدأت بصورة فعالة، ولذلك يتلخص دورهم فى استلاف المظاهر المادية لثقافة الغربيه، للاستعانة بها على نشر الثقافة العربية الاسلامية فنجدهم يأخذون التعليم النظامى بشكله الغربى، ويأخذون كافة منجزات الحضارة الغربية فى مجالات الطباعة والنشر والصحافه ليدعموا بها سلاحهم الوحيد: الثقافة العربية الاسلامية

اما الفريق الثالث: فريق المؤمنين المتحمسين للمهدية، فقد كان وقع

الصدمة عليهم رهيب ومذهلا وكما يقول الاستاذ محمد مهدى مجذوب فى مقدمته لديوان (خب و شجب) . ولقد كان وقع هزيمة المهدية فى كررى بيم وقد اعتبرها بعض الذين اذهلتهم النكبة نهاية الدنيا . وبالنسبة هؤلاء المكلومين، كانت الامور تسير من شيء الى سوأ، فقد كانوا عرضة لمطاردة دائمة وتشريد مستمر من قبل السلطات، التى صدرت منهم كل انواع الحريات، ونعمتهم بجهر رايتها فى كل مكان. فمنعت سن حب والتسمى بالانصار، واصبحت قراءة الراتب (وهو مجموعة ادعية واذكار للمهدى) صحبت نشاطا محرما، وحوكم بسببها نفر من الانصار وحكم على احدهم بالسجن مدة سبع سنوات كما حظر التجمع لقراءة الاذكار. واعتدت السلطة على تجمعات سلمية للانصار فى الشكابة فعتالت الخليفة محمد شريف ونفر من اصحابه وفى تلك الموقعة جرح الامام عبد الرحمن المهدى نفسه وهو مابرال صبى صغير (١٠ سنوات) ووسط هذا الرعب سقط جمهور المهدويين فى وهدة من الحزن والاسى بلا قرار، وتوقفت تماما عجلة الابداع الذى بدأته المهدية فى ايامها الاولى بهدف ابداع حضارة سودانية، وبدأ شعراء العهد المهدوى يرددون بعيد بعيد عن الانظار حتى ان ابو شريعة الشاعر المادح المعروف اضطر الى احراق الجزء الاعظم من ديوانه (وهو الجزء الخاص بمدح مهدى وخلفائه) واعتزل فى قرية صغيرة حتى ذكره الاجل ... وعملوا الذين واصلوا الانتاج بعد هزيمة يحصروا فى مجالات ضيقة من الشعر الصوفى، وعنهم يقول الاستاذ محمد المهدى المجذوب فى المرجع السابق «ذهبت المهدية وكانت الرقابة شديدة على الشعراء المجاهدين الذين عاشوا بعد المعركة، فلم نسمع شعرا يصف هول الكارثة فى كررى ولا فى ابى ركبة ولا فى الشكابة، وعن الشعراء تعمدوا لا يذكروا هذه الحوادث تعظيما رفضا للهزيمة ... ولم يجد هؤلاء الشعراء المحروبون شيئ من المسح والتعلق بالذات المحمدية ... وقد وجد هؤلاء الشعراء فى هذا الشعر مجالا للاعتراف بالذنب والتقصير ووجدوا عزاء

والمفارقة الكبرى فى كل هذا هى ان هذا القطاع من الشعب لم يفقد لحظة واحدة احترامه للانجليز، وان كان كثير التشدد فى محاربة فكرهم وحضارتهم، شديد التزمت فى رفض الاختلاط بهم او اللجوء الى استعمال ادواتهم ومنتجاتهم ومؤسساتهم ... وتحقيقا هذه الغاية كان هذا القطاع ينسحب يوما بعد يوم فى

(١) جهاد فى سبيل الاستقلال للامام عبد الرحمن المهدى

اقصى الريف، تاركا المدينه لعبيد الدنيا واشياع الانجليز حتى اصبح الريف معقلا حقيقيا لاعداء الحضارة والتقدم، الامر الذى قد يفسر التخلف القطيع لدى بعانيه اليوم وبصورة غير متناسبة مع المدينه فى كل من الاحوال

ان هزيمة ١٨٩٩ تضع نهاية مفاجئة لتأثير المهدوى على الثقافة السودانية، ذلك لتأثير الذى يبدو كأنه وقف قبل الاوان، وقبل ان تستوفى ابحراته فى شكل حضارى مميز لسمات، والذى لم يعاد احياؤه وبعثه الا بعد مضى زمن طويل وبصورة لايستطيع مفكر مخلص ان يغفل عنها رضاءه التام وخلال تلك الفجوة الزمنية الكبيرة ضاع من الاثر المهدوى عنصر كبير من عناصر حماسه وتفوقه واصالته.

الاثر الاخر الهام هو انفتاح ابواب السودان للحضارة الغربية و الحماس الذى قوبلت به من انصارها واعدائها فى جيل المهدويين المهزومين، ولكن الاثر الدفى و الاهم هو الانبهار الذى هبط على الجماهير السودانيه وهى تستقبل الغزاة وثقافتهم وروح التضاؤل الذى اعقب تلك الدهشة الاولى بحيث تم تنصيب الغزاة ملوك على العالم، وبحيث توقف كل دفع وطنى يستهدف التحرر وتقرير المصير ولمدة لم تقل عن ربع قرن.

ورثة الهزيمة:

يتكون هذا الجيل من اطفال المهدية وصبيانها وفتيانها - من الذين ولدوا عشية الثورة وعقبها والذين كانوا فى العشرين، او دونها بقليل، حين تم الاحتلال الانجليزى للبلاد وعلى هؤلاء يمكننا ان نطلق دون خوف من الزلل، لقب جيل الثورة فهم وحدهم الذين نشأوا فى ظل المهدية وتشربوا بثقافتها ولم يعرفوا اى نوع اخر من الحياة غير نوع حياتها وهم وحدهم الذين حفظوا الراتب والقرآن فى خلاوى المهدية، وتدرجوا فى مدارج الوعى فى خضم احداثها ووقائعها.

هذا الجيل حذف حذفا من تاريخ السودان بمجرد حدوث الاحتلال

اين ذهبوا؟ واى شيطان تخطفهم؟ لا احد يدرى، فقد ضاعوا ضياعا غير مخفيين ورثتهم اثر ذا شأن واذا كان لا بد للاحتلال من ضحايا، فان هذا الجيل وحده، هو جيل الضحايا فعلى حين كان جيل الهزيمة وجيل الجدد الهزيمة يسمسون على موائد الحكام الجدد، كان هؤلاء يفغرون افواههم من الدهشة ويخوضون حياتهم انبهارا ودون فهم او تصديق

لقد هبطت الهزيمة على رؤوسهم كالصاعقة وبترتهم من العالم بضربة سيف فلاهم من المتفقهين الناصحين الذين استلموا مراكز القضاء والتدريس في الدولة الجديدة ولا هم من تلاميذ المدارس الحديثة التى افتتحها الانجليز وعلى هذا الاساس كان محكوما عليهم بالستر والضياع والانزواء فى اقصى ركن من المجتمع.

لم تكن اعمارهم تؤهلهم لشيء خطير، ولم تكن ثقافتهم تؤهلهم لاى شيء اطلاقا، فعلى حين كان اطفال ١٨٩٩ يدخلون المدارس، كان هؤلاء قد تجاوزوا السن القانونية لدخولها. وأدهى من ذلك انهم كانوا غير مزودين باى ثقافة من اى نوع عدا الثقافة المهدوية التى عدت فى عهد الاحتلال عملا اجراميا ومطاردا. كما انهم ورثوا اخلاقية خاصة قوامها المصالحة مع العرف والمجتمع والجيل الوالد. وبمقتضى هذه الاخلاقية كان عليهم ان يملو مصيرهم بكل طواعية وان يستسلموا لتوجيهات جيل المهزومين، راضين بمصيرهم دون تذمر من اى نوع ومحافظين على التقاليد العظيمة التى ورثوها مع الهزيمة سواء بسواء.

وفى غمرة ذلك الاستسلام للضياع، خفت صوت هذا الجيل، ولم يخلف وراءه سوى اسماء خافتة ومغمورة هى اسماء المؤرخ محمد عبدالرحيم والمرحوم محمد احمد على العمرابى والشيخ ابراهيم التليب، ولكنه الى جانب هؤلاء نحت اسما داويا وجهيرا كصرخة اليأس الاخيرة، هو اسم الشاعر محمد سعيد العباسى الذى استطاع بشاعريته الفذة وحياته العريضة العميقة ان يملأ سمع الاجيال المعاصرة واللاحقة.

لقد وضع محمد عبدالرحيم - كما يروون - اكثر من ثلاثين مؤلفا فى التاريخ والادب والاجتماع ولم يطبع منها سوى بضع كتب لعل اهمها «نفثات اليراع» والمرحوم العمرابى ترك الاف المقالات متناثرة فى صحف الخرطوم والقاهرة زائدا عددا من المخطوطات التى لم تر النور. واما التليب فقد كان واحدا من شعراء الصوفية والتقليد وكان فى زمانه شهيرا ومقصودا ولكنه اكتفى فى شعره بركوب الموجة الصوفية وحين انحسرت انحسر معها وصار من المغمورين فى زماننا هذا

ان الضيع يتربص بهذا الجيل ويداهمه فى كل مراحل حياته. وبرغم المرارة التى تحملها هذا الوضع الا ان الجيل لم يتخل لحظة عن الثورية والتقدمية فى كل مواقفه الفكرية. فالعمرابى ينضم الى جمعية اللواء الابيض ويصبح من

اعصابها البارزين فى وقت كان فيه الجيل المهزوم والجيل الحفيد يرون فى تلك الجمعية غاية التطرف والتهور والاندفاع والعباسى كان مصري النزعة وعاطفا على ثوار ١٩٢٤ دون شك. اما محمد عبدالرحيم فانه بعبقرية ملهمة، يتفوق عن جيله فى جميع هذه النواحى ـ لقد بدأ من لا شيء تقريبا كان تعليمه بسيطا ومهدويا غير مكتمل، ولكنه استطاع بعصامية نادرة ان يثقف نفسه وان يصبح اول مؤرخ سودانى يكتب بروح علمية يتوفر فيها التدقيق والتحقيق والحياد وهى عناصر اساسية لكل من يتصدى لتسجيل التاريخ وهو الى جانب ذلك اول عالم اجتماع سودانى وفوق ذلك هو اقدر شراح الادب الشعبى ودارسيه وواحد من اوائل المشتغلين بالصحافة من السودانيين.

وعند هؤلاء الرجال الاربعة يمكننا ان نلمح بوضوح عمق التأثير المهدوى واصالته فاذا اخذنا المهدية على انها دعوة الى العودة الى الاصول، لوجدنا هؤلاء الرجال اول من رفع شعار هذه العودة وبرز كل منهم فى ميدانه مستندا الى الاصول الاسلامية او العربية لذلك الجانب الثقافى الذى تخصص فيه. واذا اخذنا المهدية على انها دعوة الى الابتكار وابداع حضارة جديدة فعند محمد عبدالرحيم نجد هذا الاتجاه متجليا فى صورة قومية رائعة من صور الدفاع عن الثقافة الشعبية.

وفى الجانب الادبى يبدو العباسى والتليب من الناحية العامة كالتوأمين، فكلاهما من رجالات الصوفية، وكلاهما عارف عن المجتمع، «كثير التجوال بين المدن والقرى وله فى كل منها اصدقاء كثيرون يحتفون بمقدمه»(١١) ولهما نفس الاسلوب التقليدى المحض فى التقليدية والجزالة وهما فوق تلك ينتميان الى نفس الجيل الصائع المغتصب: جيل ورثة الهزيمة

ولكن اوجه الشبه بينهما لا تخرج عن هذه الاطر العامة اذ انهما يختلفان اشد الاختلاف فى مقومات الشخصية وفى التكوين النفسى، وبالطبع فى حظهما من الاجادة فيما خلفا من اثار شعرية ولكنهما مع ذلك يلتقيان فى ناحية هامة لقاء ربما كان تلقائيا وغير مدبر، فهما الوحيدان اللذان احتفظا من المهدية بدعوتها للرجوع الى الاصول الاصيلة فتركا جانبا الادب العثمانى الذى كان لايزال يعشعش فى كثير من البلاد العربية وتعاملا مع ادب العرب القديم الاكثر اصالة وعراقة والمتمثل فى ادب الجاهليين والامويين والعباسيين. ومع ان الفضل فى هذا

(١١) ملامح من المجتمع السودانى حسن نجيله ص ٢٧٢

لانحصاره في المهدية لأن احداً من المهدويين لم يبلغ به ما بلغ من التجويد والاتقان. ولكن في الجيل التالي ـ جيل خصوم المهدية ـ واصل السير في ذلك الطريق، لأن العباسي ورصفاءه يصدرون عنهم بالمدد. ويمتاز العباسي بسموه الشاهق فوق جميع شعراء التقليد في السودان، سواء أكانوا من الجيل السابق او الجيل اللاحق.

ان شخصية العباسي الظاهرة تتمثل الجيل كله، واذا كان فرد واحد يستطيع ان يستوعب جيلاً كاملاً فان العباسي هو ذلك الفرد وفي طوايا شخصيته السامية، تلتقي محنة جيله وصنائعه وآلامه، الى جانب تلك الدوافع والمؤثرات الذاتية التي سيطرت على حياته ووجهت قدره

ان دراسة العباسي هي بصورة اخرى دراسة لجيله المهزوم، ولكي نفهم ورثة الهزيمة، لابد لنا من سماع صوتهم الاعلى والاصفى، والوحيد محمد سعيد العباسي

محمد سعيد العباسي:

يقف العباسي على مفترق الطريق بين جيلين جيل المهدويين المهزومين والجيل الجديد الذي تلقى ثقافته على ايدي الانجليز فهو تلميذ بالنسبة للشيخ محمد عمر البنا ورصفائه، وهو من الناحية الاخرى يكبر البنا الصغير وجيله بعشرين عاما ولكنه عموما اقرب الى ان يكون امتدادا رمزيا للمهزومين فهو مولود في حوالي عام ١٨٨١، وحين تم الفتح الانجليزي المصري كان في الثامنة عشرة من عمره. فهو بذلك قد شهد طرفا من احداث المهدية، وتلقى الثقافة الرائجة على العهد المهدوي. ولم يدخل بعد تلك السن مدرسة ذات شأن في توجيه فكره وثقافته والحدث الوحيد الذي عرض له في بقية ايامه، وكان ذا اهمية في حياته، هو لقاؤه بالشيخ عثمان زناتي، استاذ اللغة العربية بالكلية الحربية بمصر، الذي كان اول من وجهه الى كنوز الادب العربي القديم، وساعده على تفهمه وتذوقه وذلك «لما رأى بي احفظ القرآن وان لي معلومات بالنحو والعروض. ثم ان في ذهني وصدري ما يملي عليّ وأحفظ شيئا من الشعر وتطلبني بنوع خاص باستظهار وتفهم معانيه» (١٢) وقد بقي العباسي حتى

(١٢) مقدمة العباسي لديوانه

اخر ايامه [illegible] الذكرى استاذه الاول وقد اهدى اليه ديوانه ونشر صورته مذيلة بابيات فى العروبة بخطه وللترحم عليه

ولكن هذا لا يعنى [illegible] معرفة مستمدة من الاستاذ الرباتى، [illegible] وصح من [illegible] ثقة به كان قد تلقى النحو والعروض [illegible] لاتخرج عن صور الصلاة [illegible] الى لبناتى [illegible] الاستاذ محمد شريف [illegible] شعر المتقدمين ويصف [illegible] فى وقف حرى»

[illegible] السيد محمد شريف نور [illegible] الاخر شعر وهو صاحب القصيدة الشهيرة فى تكذيب دعوة المهدى

لقد جاءنى فى علم «زع» بموضع
عمى خبر السلطان فى شاطىء البحر

وقد تتلمذ المهدى على يديه فى اول امره ثم اختلف معه فهجره مغاضبا، ودارت الايام [illegible] حتى ان السيد محمد شريف اشترك فى مناهضة الدعوة المهدية [illegible] الموالين للحكومة التركية وحينما انتصر المهدى لم يتنكر لاستاذه القديم وكان به براحما حتى [illegible] على الارض [illegible] من الخلاف ولكن سياسة الخليفة التعايشى لم تكن لينة ولا متهاونة بالسيد محمد شريف واله فقد تعرضوا للعنت والشدة على يدى خليفة [illegible] وفى هذا [illegible] من الاضطهاد نشأ العباسى حانقا على السلطة التى اغتصبت [illegible] ووضح انه لم يتمكن من نسيان حادث معين تعرض فيه عمه [illegible] السيد عبدالمحمود نورالدائم الى عسف لايليق وكرامة [illegible] وعن ذلك الحادث يقول العباسى بعصب وحنق

حين عم السودان شر فعدى
حكم وآل من الطغاة عنيد
ورجال من رهطه قد تردوا
جلدة الحر فى خصال العبيد

ملسمعنا بمثلهم منذ كنا
عير علا الاولى وعير ثمود
قال قاضيهم لصربوا الشيخ للقا
ضرب ذى قوة وبأس شديد
لا يحكم من الكتاب ولكن
كان رأيا وكان غير سديد
فجثا ثم قال يقوم ريدوا
فوق هذا ويا شدائد زيدى
ان ربى هو اللطيف تعالوا
فاشهدوا فى لطف العزيز المجيد
ضربوه فقام يرسف كالمصعب
ذى الروق فى ثقيل القيود
لم يبن من سياطهم وهى ألف
يا حليلى غير سوط وحيد
يالها من كرامة لولى
لم تعقه كرامة الصنديد

«الطبعة الثالثة ـ ص ١٣٩»

ولاشك ان العباسي ظل على هذه الكراهية للعهد المهدوي حقبة طويلة من عمره، ولم تتخصص منها الا بعد مرور اعوام كثيرة تمير حلاله وجه الحياة والتاريخ. واصبحت الثورة المهدية مفخرة قومية للشعب السوداني باسره ولكن حتى في هذا التاريخ المرتب لا نجد لدى العباسي تمجيدا مباشرا لتلك الثورة الا عرضا عام ١٩٥٩ في رثائه للامام عبدالرحمن المهدى، وقد جاء متأخرا عن أوانه ومشفوعا بالاعتذار

وقد كان منتظرا لسليل اسرة تعرضت للعنت والارهاب ابان العهد المهدوى ان نعد عطفا وترحيبا من الحكام الجدد فيستعينوا به في تصريف اعمالهم وتثبيت دعائم حكمهم بان يمنحوه منصبا ومكانا في النظام الجديد ويبدو ان هذا كان نهج الانجليز في الايام الاولى، فقد طلب اللورد كتشنر من والد الشاعر ان يلحقه بالمدرسة الحربية بمصر «فدخلتها في ٢٨ مارس ١٨٩٩ وادرجت في عداد تلامذة من السودانيين يبلغون ٤٥ تلميذا وبعد سنتين من انتظامى بها

استعفيت لانى رأيت ان لا أمل لى فى الترقى وان كنت اول الناجحين فى الامتحانات والسبب ان نظام الترقى للسودانيين هو الاقدمية لا بالتفوق كنظام التلامذة المصريين. فقدمت طلبا بالاستعفاء وانا بالخرطوم فى الاجازة السنوية فقبل الطلب» وبعد هذا الحادث استمرت السلطة فى اتباع سياسة التجاهل بالنسبة للشاعر فلم يجعلوا له مكانا يتفق مع علمه وطموحه ومكانته، ولم يقوموا نحوه باى صورة من صور التقدير. ففى الوقت الذى كان فيه الجيل المهدوى المهزوم يتقلد اسمى المناصب القضائية والتعليمية والادارات الاهلية، كان هذا الرجل الذى لم يرتح يوما للحكم المهدوى، يضرب عبر الفيافى وحيدا ومطرودا من موائد الحكام

ويبدو ان فى حياة العباسى سرا حكم عليه باختيار المنفى، فمن ديوانه نكاد نشتم رائحة نزاع داخل العائلة، لعله نزاع على قيادة الطريقة (١٣) ويتحدث الينا العباسى محنقا عن ابن عم له لم ينصره، وعن شخص يتباهى عليه «باموال التعاويذ والرقى» وربما تضافرت هذه الازمة مع الازمة الاخرى لتجعل الشاعر يهرب الى الصحراء بعيدا عن اعين المجتمع، حيث يجد نوعا من العزاء بارضاء نزعات الفروسية والغزل فى نفسه الشاعرة.

ولم تكن تجربة اللجوء الى الصحراء اولى محاولاته لاعتزال المجتمع والبعد عن ضوضاء الحياة ففى سنواته الاولى امعن العباسى فى التصوف واعتزل العالم بمشاكله وصداماته وصراعاته واخلى قلبه وحسه لنداءات الحب السامى والتقرب الى الذات، فتراه يعمل بالتشطير والتخميس ويجرى ذلك على اشهر قصائد المتصوفة كابى مدين والشبلى، كما انه ينشيء قصائد صوفية صرفه مثل قصيدتيه (النفحات السمانية) و (عمر الايام) وقد يصعب على المرء ان يصدق ان العباسى هو صاحب هذا الشعر مثلا:

بالله لله سر فى طاعة الله
ودع مقال عذول للهوى لاحى
وقف على قدم للادب ملتزما

(١٣) هذا قريب من قول الدكتور الشوش ونحن لاندرى على وجه التحديد الظروف العائلية التى اورثته هذا الضيق وملأت قلبه باحساس الغربة والضياع وربما كان ابعاده عن زعامة بيته الدينى وعدم لحاقه بمكانة ابائه واجداده من اشراف الطريقة السمانية لها اثر فى ذلك» ـ الشعر الحديث فى السودان للدكتور الشوش ص١٠٢

جاهد نفسك تربح رحمة الله
طريقة القوم خذها عن ائمتها
ولا تكن ـ صاح ـ عن اقوالهم ساهى
لترتوى من شراب القوم صافية
يظل شاربها بين الورى زاهى

ولكن ما نرى في هذا الشعر من ضعف [illegible] عن [illegible] ـ واضح في تقليد حرفي طبع العباسي، يدعونا الى الاعتقاد بانه من شعر الحداثة بالنسبة له [illegible] النزعة الصوفية القائمة كانت تسيطر عليه في مطلع الشباب ونحن لنراع الذي جرى وخيبة الامل المريرة التي خرج بها من [illegible] جعلته يعتزل المجتمع الصوفي كما عزل المجتمع العام، فهو [illegible] يعمر بلا مقر

كان حاقدا على العهد العثماني، وكان [illegible] وكان في صدر شبابه قد حرب [illegible] على [illegible] [illegible] الشريف، لا يسمح بهذه النزعة في الخطبة فضلا عن ان [illegible] بالنسبة الى ثقافة كانت تدعوه الى [illegible] المصريين

وسنت نراه يعقد [illegible] وثقافته وبين مصر، [illegible] الى ذلك الشاعر القديم الا في موضع [illegible] حيث يتحدث عن السياسة المصرية في العهد التركي [illegible] والاعتراف [illegible] بعض حكام (كما يقول في هامش [illegible] قد اصبحوا بعد الفتح تحت الاستعمار البريطاني بخلاف اوائلهم [illegible] ثم يستطرد فيشهد الله ان بعضهم قد اذاه وجرعه غصصا من العذاب وانه لولاهم لما هجر مكتبة العرب في مصر [illegible] الامر وضوحا تعليقه في هامش قصير (اسفل صفحة ١٢٨ ـ الطبعة الثالثة) يشير الشاعر الى بعض زملائه في المدرسة الحربية فقد كانوا السبب في كرهه للمدرسة وخروجه منها

ولا ربك ما كانوا لنا ابدا
بفلسطين ولا كنا لهم خدما
حصن نعمنا به حينا فمذ لعبت
يد السياسة مال للحسن وانهدما
لا اكذب الله كم جرعت من غصص
من بعضهم ولكم ذقنا بهم الما

فما بدوا كالذي كانت أوائلهم
تبني، ولا حسبا صانوا ولا شمما
رضوا من المجد أن أثروا فما طمعوا
في الصالحات ولا ذاقوا لها طعما
جاز الرمال جئنا نستجير بهم
من الخطوب فكانوا الخصم والحكما
وما درى القوم أنا أولياؤهم
لسنا السوائم بالمرعى ولا الغنما
لولاهم ما اطرحت السيف نعرفه
كفي ولارضيت من بعده القلما

ولكن هذا النزاع الصغير لايكون نظرة العباسي السياسية، فهو مبغض للحكم الانجليزي الاستعماري، وهو محب لمصر حبا خالصا جميلا وهو يرى فيها طريق الحرية والخلاص. ليس فقط لأنه يضيق بالحكم الانجليزي، ولكن لأنه معجب بالثقافة والحضارة التي تمثلها مصر في [illegible] طليعتها، وواضح في الديوان أن أشد مظاهر هذه الحضارة جذبا للعباسي هو مظهر احترام الأديب وإنصافه وإنزاله المنزل اللائق به بين عظماء الأمة. وليس هذا بدعا لدى العباسي، فقد ظل هذا المظهر الحضاري في مصر يجذب إليه عواطف الأدباء السودانيين عبر الأجيال، ولكنه يصبح لدى العباسي بصفة خاصة، فحين كتب أشعاره هذه، كانت قصائد شوقي تنشر في صحيفة الأهرام، وكانت مقالات طه حسين تصدر في السياسة الأسبوعية، وكان المجتمع المصري يحتفي بأحبار الأدباء ويلقبهم بألقاب أمير الشعراء وعملاق للأدباء وعميد للأدب. ولم يكن العباسي يرى نفسه أحط قدرا من شعراء مصر ولكنه كان يتلفت حواليه في السودان فلا يجد أدبا تصغى إلى الشعر ولا تحفل بنشره، وحتى ذهب إلى الرقيب في عام ١٩٢٨ ليسمح له بنشر ديوانه منعه الرقيب فهم لديوان ومنع نشره (١٤) ومن هنا نجد حب مصر لدى العباسي

(١٤) يروي الأستاذ حسن نجيلة في ملامح ص [illegible] [illegible] ديوانه فظل يرفضها واحدة بعد أخرى حتى وصل [illegible] قصيدة [illegible] مطلعها [illegible] حسن صبري) وهو مطلع غير [illegible] العباسي [illegible] هذه القصيدة [illegible] الرقيب [illegible] هذه قصيدة سياسية يمدح فيها حسن صبري باشا وكان رئيس الوزارة المصرية [illegible] العباسي وجمع ديوانه وخرج وآثر تأجيل طبع الديوان

مرتبطا بظاهرة تقدمها الادبي واحتفائها بالادباء والمفكرين، بل ان شعره في مواضع كثيرة يفصح عن ذلك الارتباط

آه لو كان لى بسط من الريح   اوافيه او قوادم نسر
فأطير نحو مصر اشتياقا   انها للاديب احسن مصر

وايضا

فلو كان لى علم ما فى غد   لما بعت مصر بسودانيه
عدتنى طيب ذلك الثواء   نوى قذف خيلها عاديه
وودعتها امس لاعن قلى   ولم تكن النفس بالساليه
الى بلد عشت فيها غريبا   بعيدا عن الناس فى ضاحية
أقيم بها فى صدور المطى   للمرخ تحدى وللصافيه
لعلى اصيب بتلك البطاح   صباى وذاهب أياميه
رعى الله مصر فكم للاديب   بها ثم من عيشة راضيه
واحبب بأيامها الذاهبات   على مابها وعلى مابيه

وحتى عندما يخاطب السودانيين مستنفرا اياهم للنهوض والطموح، لايكتفى بتذكيرهم بامجاد العرب التى حازها فى انشاء الاساطيل والطائرات، بل يذكرهم ايضا بامجاد مصر التى ترتبط بها، وهى فى نظره شعر شوقى ونثر **الرافعي ويقرن** بين هذين وبين الاساطيل والطائرات كأنهما هما سواء من النوع والمنزلة

هل شدتمو يقوم لسطو لا على البحر مخر
أو طائرات بالسما ترمى الاعادى بالزبر
أو حررت اقلامكم لنا من الاى الغرر
كمثل شوقى اذ شدا والرافعى اذ نثر

وحب مصر بهذه الصورة الكاسحة، امر متواتر فى شعر العباسي وشعر غيره من السودانيين فقد كانت مصر قبلة العالم الاسلامي منذ عهود سحيقة، وكان نضالها فى العقد الثانى من هذا القرن، ملهما للشعوب العربية، وقائدا لاشواقها وتطلعاتها. وحين كتب العباسي هذا الشعر كان الشباب السوداني يستشهد فى معارك الكفاح، ويقف امام محاكم الاستعمار، ويذوى داخل

السحون باسم وحدة وادى النيل ومن احلها وقد تختلف دوافع الشاعر عن دوافع اولئك الشباب ، ولكنه كان متحدا معهم فى الهدف ملتقيا معهم فى بغض الاستعمار البريطانى ، ومقت دعاة الانفصال عن مصر مهما كانت شعاراتهم التى يختبئون تحتها فنراه فى احدى القصائد يهاجم القومية السودانية لا لانه ضد هذه القومية من ناحية المبدأ ولكن لانها فى نظره دعوة انفصال

وما تريدون من قومية هى فى
رأيى السراب على القيعان رقراقا
طلبتم الغرض الاسمى بتسمية
كلا بلاسم تحريرا واعتاقا
لقب او اسم اقام الغافلون له
سوقا وانشأت الاغراض اسواقا
وما أرادوا يمين الله اذا وضعوا
جمع الشتات ولا للحق احقاقا
فمحصوا الرأى لا ترضوا بيانعه
ولن اصاب هوى منكم وان راقا
لا تخدعوا ان فى طيات ما ابتكروا
معنى بغيضا وتشتيتا وارهاقا
ليصبح النيل اقطارا موزعة
وسلكوا النيل اشياعا واذواقا

وقد كان التفكير السياسى فى ذلك العهد يماشى هذه النظرة فمثقفو الفترة كانوا يعتبرون السودان اعجز من ان يحكم نفسه بنفسه وان لا سبيل سوى المفاصلة بين المصريين والانجليز لاختيار احدهم كحاكم للبلاد ، فاختاروا مصر لتقارب اللغة والمصالح والمزاج ونبذوا الانجليز لما رأوا منهم من العسف والتعالى وبذلك لم تصبح قضية القومية قضية ملحاة ، بل قضية مؤجلة وفى شعر العباسى نفسه نلمح بوادر الشعور القومى فى اكثر من مكان ففى قصيدتيه (ستار بين القديم والحديث) و (وادى هور) نراه يقف على اثار ممالك سودانية ، باكيا على العزة الزائلة والمجد المندثر ومع ان الصدق الشعورى فى هاتين القصيدتين ، يحتجب تحت ستار كثيف من التأثر وتعدد الاغراض الا ان مجرد الحديث عن ماضى السودان الخاص ، له دلالته فى وقت

كان فيه الشرق باجمعه لايرى له تاريخا سوى التاريخ القديم المتجسد بامجاد صدر الاسلام وعهود الخلافة الزاهرة

وعند العباسي ايضا نلتقى مرة اخرى بمظاهر النعرة القومية في قصيدته (كفاح مصر) حيث يذكر مفاخرا ان الجنود السودانيين الذين شهدوا معركة التل الكبير بين العرابيين وجيش الاحتلال، ابدوا شجاعة فائقة وثبتوا حتى فنوا عن اخرهم

سل عنهم وقعة التل الكبير وسل
ان شئت من قرا التاريخ لو رقما
وانت ادرى بما لاقوا فقد حصدوا
حصداوما زحزحوا عن موقف قدما

وفي نفس القصيدة يذكر شهداء ثورة ١٩٢٤ وابطالها متحسرا وممجدا ومثنيا على كفاحهم وسجاياهم وشجاعتهم

ولكن عوامل كثيرة تضافرت لتضعف شعور العباسي القومي، فقد كان كما رأينا يرفض المهدية، وهي صلب تاريخنا الوطني ومفخرتنا القومية الاولى وقد كان ساخطا على الحضارة الغربية الوافدة التى لم ينل منها السودان سوى قشورها وشرورها ومن هنا صرف طاقته الشعرية في ذم الزمان وشكوى الدهر والحدود لعواثر مع التمنى ماعاد عامة لايمتلك معها علاقة خاصة او حميمة

لقد كان العباسي محكوما بكل هذه الظروف كان مقدورا عليه ان ياتي في نهاية جيل الهزيمة، وفي البداية الباكرة للجيل الحفيد فيجد نفسه خارج كل من الجيلين ويجد نفسه يلعن الجيل المهزوم ويساير الجيل الحفيد ولكن من الخارج، وليس الى نهاية الشوط كان محكوما بعصره وتاريخه ومولده وكان محكوما ايضا بثقافته الدينية واللغوية التى تفتقر الى عنصر الملهاتية، بعكس الجيل الحفيد الذى تزود بالثقافة العربية المجددة من جانب، وبالثقافة الانجليزية من الجانب الاخر، فاصبح لقاؤه بذلك الجيل سطحيا ومحدودا

وعلى مستوى الشعر، يبدو بوضوح سطحية هذا اللقاء فقد كان لعباسي الى حد كبير، شاعرا تقليديا على مستوى البارودي في حين كان الجيل الحفيد تقليديا على مستوى شوقي وحافظ واحيانا احدث من ذلك بكثير

ومن الغريب ان يتحدث العباسي عن وحدة وادى النيل او يوم التعليم فيفتتح حديثه بالغزل جريا على سنة الجاهليين ومن تأخر عنهم، على حين يصطنع الجيل الآخر لغة اقل جزالة واكثر بساطة لقد كانوا ـ بلغة العصر ـ مجددين في حين ان العباسي لم يكن شديد الميل الى الجديد ويلخص موقفه الشعرى بهذه الصورة التى صاغها في بيت من الشعر يتحدث فيه عن شعره

عبقري الطراز ماملت فيه
للقديم البالى ولا للجديد

وهذا هو بالضبط موقف البارودى ومعاصريه الذين يمثل شوقى بالنسبة هم خطوة الى الامام وبعيدا عن التقليدية
يقول العباسي:

فقدت ثراء المال وازور جانبي
ولم يبق لى إلا التوجع والشعر

وهذا يلخص القضية جيدا بالنسبة لورثة الهزيمة فهم في حقيقة الامر لايملكون اكثر من هذين التوجع والشعر انهم لايملكون ثقفة الجيل المهزوم في النواحى الدينية ولايملكون علمانية الجيل الجديد الناقصة ـ لم يكن بايديهم غير سلاح وحيد ليحاربوا به العصر هو العربية ومن العربية ادبها ومن ادبها الشعر بالذات والشعر فقط وبالشعر كان عليهم ان يعيشوا القرن العشرين ولكن الشعر تقصف في ايديهم امام زحف الحضارة وتعقد الحياة ولم يجدوا لا هذا النفى الاختيارى.
إن حياة العباسي وشعره يصيبان ابعاد هذا المنظر المحزن، فتردده بين البادية والمدينة، وتردده بين قبول الحضارة ورفضها يقوم دليلا على الازمة التى عاشها ورثة الهزيمة حين لم تجهز عليهم الحضارة الوافدة نهائيا كما فعلت بابائهم ـ قبولا او رفضا ـ وانما املت عليهم ان يعايشوها مرغمين

وانبذوا هذه التى رفعها الغرب اليكم حضارة براقة

هكذا يقول العباسي وفي اثره تسايره تخف اللهجة وتتحول الى عتاب

حزى الله هاتيك الحضارة شر ما
جزى من تصاريف الزمان المعاند
فلم تک يوما والحوادث جمة
حمى لضعيف اوصلاحا لفاسد
شقينا بها حتى لبتنا ادلة
واغلالها منا مكان القلائد

ثم فجأة ينتكص:

ان الشعوب بنور العلم مؤتلقا
سارت وتحت لواء العلم خفقا
وطوفوا ببقاع الجو فامتلكوا
عصيها وبقاع البحر اعماقا
وكل بحر لحالوا موجه سفنا
لم تشک لينا ولا وخدا واعناقا
فى الشرق والغرب تلقاهم وقد بسطوا
ظل الحضارة مقابين طراقا
يالحسنها لو حوت أمنا وعافية
لكنها قد حوت فتحا واحداقا

ويظل هدا التدبدب بين حدى الاختيار قائما وغير منحسم فى كل اقطار الديوان فالمسألة لم تعد لرفض والقتال حتى اخر نفس ـ كما فعل رجال كررى و نها صحت حيرا بين المعاندة والتسليم بالهزيمة وكان كرياه هذا الجيل يمنعه من التسليم ووعيه يمنعه من المعاندة ، ومن هنا كان حتما ان يختار المنفى ـ ن يهرب الى الصحراء ومع دلك يغشى المدينة من حين الى حين

٣ ـ احفاد الهزيمة

اما هؤلاء فلم يشهدوا الهزيمة الكبرى فى كررى ولم يكونوا على قدر كاف من الوعى ليتفهموا معناها فى سنوات الغزو الاولى حين كان الغزاة يطاردون فلول المهزومين ويطبقون عليهم قوانين الانتصارات العسكرية لقد كان

بعضهم اطفالا حينئذ وكان بعضهم مايزال جنينا في رحم الغيب وهم بلاشك سمعوا كثيرا عن الهزيمة في مابعد ولكن في ظروف مغايرة لظروف حدوثها وبعد ان هبط بينهم وبينها حاجز زمني سميك حدث فيه تغيير في الولاء وبدأت في الظهور نغمة قوية من نغمات الاعجاب بالغزاة وتسبيح دائم بمجد الامن الذي اشاعوه والنظام الذي اقروه على عرشه السليب ولذلك كان على هذا الجيل ان يتلقى درس الهزيمة بطريقة جد مختلفة

لقد تعهد الاستعمار بتنشئتهم وتثقيفهم في مدارسه الحديثة وتزويدهم بنوع جديد من اساليب التفكير والتعبير بحيث اصبحوا اوسع افقا وادركا واشد تفهما ليس فقط لظروف الوطن السوداني بل لظروف الوضع العالمي على وجه عام وبفضل هذا الوعي استطاعوا ان يفهموا الهزيمة في اطارها الصحيح فلم يروا فيها مجرد الانكسار العسكري الذي قذف بابائهم في احضان الحيرة والانخذال وانما رأوا فيها بجانب ذلك بشاعة التأخر الحضاري وفظاعة الانتماء الى امة مقهورة ومستضعفة انهم بعبارة اخرى قد تلقوا من المدرسة النظامية الحديثة درس الهزيمة الكامل ثم عاشوا تفاصيل ذلك الدرس بعد مغادرتهم المدرسة - عاشوه في صورة التضييق عليهم في القول والعمل وفي صورة الحرمان من الوظائف الهامة واحتكارها للاجانب وفي صورة الحرمان من حريات التنظيم والمخاطبة وعاشوه في وعيهم الدائم بما ينقص منهم من اشكال الحضارة ومؤسساتها.

لقد حلت على هذا الجيل لعنة الهزيمة وهبطت عليه بثقلها الفادح بحيث اصبح مطوقا من كل الجهات فمن ناحية كانت قيادة المجتمع ما تزال في ايدي المهدويين المهزومين الذين تحولوا الى مدافعين عن النظام الجديد ومن ناحية اخرى كانت اخلاقيات هذا الجيل لا تحلم مجرد حلم بالخروج عن طاعة الجيل الوالد ناهيك عن مهاجمته وعقوقه ومواجهته بان يذهب هو وتجبيره المقدسين الى الجحيم ومن ناحية ثالثة كان نوع التعليم الذي تلقوه والدور الذي رسم لهم لا يؤهلهم لقيادة ثورة اجتماعية فقد كانت المدرسة تحشو رؤوسهم بالمعلومات في اقصر فترة ممكنة وتقذفهم الى المصالح الحكومية في وظائف ضئيلة الشأن يحرسها جهاز دقيق من الارهاب والوصولية والسعايات وتتحكم فيها اهواء الرؤساء الانجليز وجودا وعدما وعلوا وانخفاضا

وفي هذا الجو الخانق كان حتما ان يفقد ذلك الجيل كل مقدرة على الرؤية وان تظل رغبته في التغيير حبيسة في اطار غائم من عدم الرضا والبحث عن

العراء خلال عشرين عاما ونيف التزم المثقفون بنوع مريب من الصمت ولم يقوموا بأي حركة ايجابية وطنية تستهدف الاستقلال والتحرر الوطني والاغرب من هذا انه لم تبلور اية بادرة خلال تلك السنوات العشرين تدل على ان المثقفين قد قرروا - كجماعة - ان يحاربوا المستعمرين ويناصبوهم العداء وعلى العكس من كل ذلك نجد لدى هذا الجيل اعزازا فريدا للمستعمرين وتسليما بضرورة استعمارهم للبلاد - تلك الضرورة التي يفسرها الصحفي الاول حسين شريف بقوله «ان كفاءتنا الذاتية تبعد بنا في الوقت الحاضر عن الدرجة التي تؤهلنا لحكم انفسنا بانفسنا دون مساعد او مرشد» ولذلك كان وجود المستعمرين الانجليز مهما في نظرهم بل ومرغوبا فيه ومن هنا نجد شعرائهم لا يتحرجون من مدح الانجليز او رثاء كبرائهم والاشادة بمآثرهم كما ان الكاتبين لم يألوا جهدا في الدفاع عن حكومتهم العادلة وتذكير الناس بفضلها وذهب بعضهم مذهبا متطرفا في هذا الاتجاه كما يبدو في عرائض الولاء التي رفعها وجهاء البلاد الى الحاكم العام بمناسبة دخول السودان في الحرب العظمى الاولى جنبا الى جنب مع بريطانيا تقول احدى تلك العرائض «نرفع لحكومتنا العادلة ولاءنا واخلاصنا قلبا وقالبا اذ لم نر منها سوى احترام ديننا وتوظيف القضاة الشرعيين للفصل في امورنا بموجب الشريعة المحمدية وتشييد المدارس لتربية اولادنا وتعليمهم وتسهيل طرق الحج والزيارة النبوية ونشر العدل والامان في جميع انحاء بلادنا وحسن معاملتنا»

ولكن هذا المظهر المستسلم القانع لا ينبغي ان يلهينا عن حقيقة هامة هي ان الجيل الجديد ظل برغم ذلك جيلا ساخطا غاضبا وغير راض عن اي شيء او بأي شيء لقد كانوا لا يعرفون مايريدون وكانوا اسرى حلم غامض بان يوجدوا في غير عصرهم وان يعيشوا زمنا غير زمنهم وكان عليهم ان ينتظروا عشرين عاما ليعرفوا طبيعة حلمهم المجهول

وقد تدخلت الظروف مرة اخرى لتوجههم في الوجهة الخطأ فقد كان الشرق عموما في تلك الايام يعيش فترة يائسة من حياته - فترة مليئة باستعادات مكرورة للامجاد الاسلامية القديمة ومباهاة بما هي شبه ما تكون بمباهاة المفلس بعراقة نسبه ومحتده وقد تلقف الجيل الجديد هذه النغمة الرتيبة من بقية البلاد العربية فبدأ يؤكد انتماءه العربي الاسلامي ويستعيد صور الماضي الزاهية مصطنعا منه ركيزة له في عالم ينطق بتفوق الاوربيين ويشهد هوان شأن العرب

كانت هده النغمة اخر ماتبقى لهم بعد العزو فقد فقدت بلادهم مقدرتها على العطاء الحضارى منذ امد بعيد وانتقل مركز الثقل الى اوربا بحضارتها المتوثبة التي بدأت تكتسح امامها قلاع العالم القديم من ادغال افريقيا الى حوائط الصين . ولم يعد بايديهم ما يفاخرون به سوى اسلامهم وامجاد ابائهم العرب فضلا عن ذلك فقد كانوا اضعف من ان يتوجهوا للحضارة الغربية باى نقد موضوعى يكشف عن مواطن الضعف فيها ويبقى على شيء مما قدمت شعوبهم للعالم ومن قلب هذا اليأس انطلقوا في طريق خلفى اشبه ما يكون بالهروب من المناقشة اذ صمتوا عن عيوب الحضارة الجديدة وراحوا يؤكدون امتياز حضارتهم القديمة الامر الذى يبدو تسليما ضمنيا بتفوق الحضارة. ولكن السلوك المكرى لهذا الجيل لايحوجنا الى الاعترافات الضمنية فقد قالوها صريحة وفي عشرات المناسبات وقالوها بدهشة ساذجة وعن عدم فهم وبافتتان ولم يقف انبهارهم عند حد الاشكال الموضوعية للحضارة بل تجاوزها الى المظاهر الصغيرة والذاتية جدا فنرى الصحفى الاول حسين شريف يلتقط من زحام استقبال حاشد هذا المظهر ذا الدلالة الفريدة فيسرده باعجاب خاشع ومنبهر «وكان حناب القائمقام هيربت بك ممتطيا صهوة جواده ليباشر بنفسه المحافظة على النظام وقد رأيته بنفسى يرفع عصا لاحد المودعين سقطت منه اثناء مروره بالشارع» جريدة الحضارة ـ عدد ٥ يوليو ١٩١٩

وعقلية منبهرة كهذه لايمكن ان نتوقع منها سوى الهروب فمع تقديرهم المبالغ فيه لحضارة العرب ظلوا عاجزين عن تبنيها بدعوى انها تراث انسانى وعالمى ومشاع وحتى اللحظة الاخيرة ظلت بالنسبة لهم حضارة اجنبية تقف في مواجهة حضارتهم العربية والاسلامية فراحوا يرددون بمناسبة وبلا مناسبة اساهم العميق على انحسار ظل الدولة الاسلامية ويتمنون بحرارة ان تعود ايامها الزاهرة حتى ان شاعرا مثل مدثر البوشى اعلن عن امنية جيله الدفينة بان يعود الزمان القهقرى فينشر الموتى وتطوى صفحة الاحياء.

فليت سكان بطن الارض لو نشروا

وليت من فوقها فى رحمة الكفن

واذا كانت البلاد العربية الاخرى قد مارست هذا النوع من العلاقة المريضة مع التاريخ الاسلامى الا انها لم تذهب في هذا السبيل الى نهاية الشوط فقد وقفوا عند حد الاعتزاز بالعروبة والاسلام والحنين الى ايامها الزاهية كما

اضيفت اليها نغمات اخرى كنغمة الامجاد الفرعونية عند بعض الكتاب المصريين اما في السودان فقد وصلت هذه النزعة الى ابعد حدود التطرف وذهبت الى ابعاد غير متوقعة فقد بدأوا يعيشون حلم العودة الى الايام المشرقة ـ ليس بالخيال وانما بالعمل والمباشرة فيصل الامر لدى البنا حد اعتزال المدينة وسكنى بادية البطانة وعند المرحوم الطيب السراج يتخذ صورة الحديث بالعربية الفصيحة في كل شؤون الحياة كما يروى انه كان يحتفظ بخيمة في بيته ويقتنى حصانا يجوب به شوارع امدرمان المسفلتة وسط السيارات والترامواىات واذا عاملنا هذا النوع من السلوك لدى الشيخين الوقورين كنوع من التطرف الذاتي البواعث فاننا لا نجد عذرا للجيل «بصفة عامة» عن محاولاته الدائبة للعودة الى الايام الخالية ـ تلك المحاولات التي لا تتحقق في الحنين فقط وانما في السلوك فنرى شعراء الجيل الجمد يعيدون تقاليد القصيدة العربية القديمة التي تبدأ بالنسيب والوقوف على الاطلال كما يبعثون من جديد تقاليد المدح الذي ينشد امام الممدوح جريا على سنة الامويين والعباسيين فنرى عبدالرحمن شوقي يمدح السيد على الميرغني واحمد محمد صالح يمدح السيد عبدالرحمن المهدي والبنا يمدح كلا السيدين وقام شعراء من نفس الجيل يمدحون كبار الرجال في البلاد من سودانيين ومصريين وانجليز ودبج عبدالمجيد وصفي قصيدة في مدح الملك جورج الخامس.

ويتقمص الادباء شخصية العربي القديم بصورة تدفعهم احيانا الى مغالطة الواقع فلا نلمح في انتاجهم اى اشارة محلية ولا نرى فيها شيئا يربطها بالارض السودانية وقد ذهبوا في ذلك مذهبا بعيدا حتى انهم صاروا يحورون الاسماء السودانية او يتجاهلونها في اشعارهم الغزلية ليشببوا بهند وامامه واسماء وغيرها من الاسماء العربية التي لا وجود لها في السودان

أمامة انت نور للعين مدى

تشف به المفاهم والظلام.

«البنا»

أسماء ملتي في الاوانس من هوى

فقد كدت ألقى في السنين لبيدا

«عبدالله عبدالرحمن»

لزينب ربع مليحيك محول
عفا بعدما قد كان بالعيد اهل

واحمد محمد صالح »

ويذهب الشاعر توفيق احمد البكري مذهبا مماثلا حينما ينشيء مع مضارب الجاهليين علاقة من الود والتذكار

ياليت شعري هل تعود ليالي الانس الطويل
ايام نهتف بالقريض ومعبد فينا يقول
أيام نذكر ذا القروح وحومل ثم الدخول
والنشر فينا ضارب اطنابه حسن لايزول

والى جانب هذا النوع من التقمص للشخصية العربية القديمة (١) نجد مظاهر الحنين الى الماضي العربي التي يشترك فيها الجيل مع الاجيال العربية المعاصرة له في بلاد العروبة الاخرى فنرى المثقفين يحتفلون بالمولد النبوي وباول العام الهجري فينظمون القصائد ويصوغون الخطب والمقالات التي لا تخرج كلها عن الاشادة بالماضي الاسلامي المجيد والتنديد بالحاضر البغيض والدعوة الى نبذ المفاسد والموبقات ويكاد هذا النوع من النشاط يمثل الجزء الاكبر من انتاج الجيل الجديد فدواوين الشعراء تكتظ بهذا النوع من الشعر وصفحات المجلات تفيض به كما تفيض بمقالات مشابهة المضمون

وقد يبدو هذا التطرف غريبا في صدوره من السودانيين بالذات وهم ليسوا اعرق من غيرهم عروبة ولا احسن اسلاما ولكن العجب يزول حين نذكر تلك العقدة القديمة التي بذرها في احيان السودانيين انحدارهم من اصل هجين تختلط فيه الدماء العربية بالدماء الافريقية وقد وجدت تلك العقدة

(١) لم يقف ذلك التقمص عند الحدود اللغوية فحسب بل تعداها الى النواحي الدينية فكما كانوا حريصين على تقمص التراث اللغوي كانوا اشد حرصا على تقمص التراث الديني وما يجري به من تقاليد في العدالة ويحدثنا الدرديري محمد عثمان عن نفسه كقاضي مدني فيقول «وكنت وان طبقت القانون الوضعي في حذر ان يطابق ما سنه الانسان ما حكم به الله خصوصا في جرائم القتل فلم احكم بالاعدام على شخص ما دون ان ارجع في هذا الحكم الى نصوص الشريعة الاسلامية» مذكراتي ص٢١ ولايمكننا ان نتصور غرابة هذا السلوك الا اذا تذكرنا ان الراوي كان قاضيا مفروض فيه ان يطبق نصوص قانون عقوبات السودان وهو قانون مكتوب وغير مسموح له بتجاوزه

متنفسا في نعرة المباهاة بالماضي التي كانت تنتظم الشرق العربي باجمعه فاستغلوها في اصابة هدفين في آن واحد - الهدف الاول هو ايجاد سند حضاري يثير في شعبهم الفخر القومي وينقذهم من التسليم والانهزام امام زحف الحضارة الجديدة والهدف الثاني هو تأكيد انتمائهم العربي وتثبيته والاثار الفكرية التي خلفها الجيل الحفيد تكشف في ثناياها عن احساسهم بوجود عقدة الانتماء ومحاولتهم لازالتها فالشيخ عبدالله عبدالرحمن وضع كتابا عن العربية في السودان الغرض الوحيد من تأليفه هو التدليل على ان لهجة السودانيين لهجة عربية صافية ومستمدة من صلب اللغة الفصحى مباشرة والمرحوم الطيب السراج كان يلجأ في شعره الى استعراض ثروته اللغوية بحماس منهم حتى انه كتب شعرا كهذا

قالوا: استعيدوا مجدكم تجديدا
لاقى المراد من النصيح مريدا
قرع الطنابيب اليعاسيب الالى
يحيون فينا كل يوم عيدا
شد الحيازيم الكرام ليبعثوا
بعد البلى لغة الجدود جديدا
لغة الجحاجيح المراجيح الوحاويح
المصابيح السماح جدودا
أعنى المرازبة الملاوثة الحلاجمة
الخضارمة الابة الصيدا

وعند عبدالرحمن شوقي يتضح جهارا هذا الاحساس بالانكار فيتخذ من البداية موقف الدفاع متحملا عبء الاثبات

فحدث عن بني النيلين قوما　　بوادي النيل من عدنى العرب
بأنا ننتمي حسبا ومحتدا　　لأي ما بالحروف من فات

ويؤكد عبدالله عبدالرحمن على نفس المسألة

كلكم في اصوله عربي　　جمعتكم مواطن السودان

والشيخ محمد الامين القرشي يخاطب المتنبي قائلا:

وقد سكت للسودان عنك فمالهم
أليس نملهم هاشم وتميم

وللمرء ان يستغرب كيف كان ذلك الجيل يطيق الاستماع الى خطبائه وشعرائه المعممين و التقليدية وهم يكررون على مسامعه كل عام نفس الخطبة ونفس القصيدة متحسرين على بغداد والاندلس وعدالة عمرو واقدام طارق بن زياد او كيف كانوا يستسيغون ذلك التوبيخ المكرور على اضاعتهم مجد الاباء حتى ليتساءل المرء ما اذا كان السودان قد شهد شيئا من ذلك المجد العريض واشترك في صنعه او التمتع به وهو القطر الذى انعزل طوال تاريخه القديم عن تيار الحضارة العربية ولم يشهد سوى ممالك الفونج والفور وذلة الاستعمار التركي ولكننا نستطيع ان نقدر الموقف بصورة احسن حين نتذكر تلك الموجة الطاغية من الفخر التى تنتظم الجمهور وهو يسمعهم يعترفون له باصله العربي ويعاملونه كواحد من ابناء الحضارة العربية العتيدة وبفضل تلك اللذة السادية احتفظ ادباء الفترة بجمهورهم وشيدوا امجادهم الخاصة .

ومع هذه المحاولة لاستقصاء البواعث يظل بحثنا ناقصا مالم نتطرق الى عامل آخر كان يتحكم فى حياة الجيل ويقرر اقداره ومواقفه

ان المسألة ليست البحث عن مرتكز حضارى فحسب وليست تدعيما للانتماء العربي فحسب ولكنها الى جانب ذلك محاولة للهروب. محاولة تتشح بلباس الرومانسية البديع وتخطر فى اوهامها المعطرة صانعة من مهربها الجديد جنة دانية القطوف والجنة الجديدة ليست الحضارة العربية القديمة كما كانوا يوحون الى المستمعين ولكنها الادب العربى القديم . الادب وحده من دون عناصر الحضارة العربية التى يذوبون هياماً بها

ان فتنة الحضارة العربية بالنسبة لهم لا تكمن فى فلسفة ابن رشد ولا علم ابن سينا ولا كيمياء جابر ولا توحيد الغزالى وسحرها لايتمثل لهم فى قصور بغداد او عصر الاندلس الرطيب واصالتها لا تتجلى فى عدالة عمرو واقدام طارق بن زياد - لقد عميت ابصارهم عن كل هذا وتعلقوا بمظهر وحيد هو المظهر الادبى وبقدر مايكون عمرو وطارق مكملين ومساعدين لهذا المظهر بقدر ما يكون لوجودهما ضرورة ولايا منهما محبة فى القلوب

نعم انهم يذكرون كل هؤلاء بولع منقطع النظير ولكن لاينبغى ان يخدعنا هذا المظهر الزائف فتحته يختبىء هيامهم الاوحد بالادب فى عصوره الزاهية ولا يجيء ذكر هذه الاشياء والاسماء الا لانها مرتبطة بذلك الادب ولانه لا

سبيل لى تصوره بدون وجودها فى خلفية الصورة وهذا فبالرغم من كثرة الصيحات التى ظلوا يطلقونها الا انهم لم يستجيبوا الا لصرخة وحيدة هى صيحة حسين شريف بعنوان «حاجتنا الى كتاب وشعراء» فسرعان ما ظهر عشرات الشعراء والمتشاعرين والكتاب والمتكاتبين واصبح الادب فى طليعة هوايات جيل كله والى جانب ذلك استطاعوا ان يحققوا اعظم انجازاتهم فى مجالات النشر الادبي فظهرت عام ١٩٠٣ جريدة السودان وهى جريدة «سياسية تجارية ادبية اخبارية زراعية» ثم صدرت الرائد عام ١٩١٤ وهى ادبية اجتماعية وفى عام ١٩١٩ صدرت جريدة حضارة السودان ادبية اجتماعية اول الامر وبعد قرابة العام تحولت الى جريدة سياسية وهكذا ظلت صحافة السودان خلال السنوات العشرين الاولى ادبية خالصة

ولا ارانى مبالغا لو قلت ان الادب لم يكن على هذا المستوى من الاهمية لاى جيل من الاجيال فى اى عصر من العصور فقد اصبح طريق طهارة وخلاص ومهربا من الواقع المؤلم الذى يهبطهم بثقله الفادح وفى عصور الكتابات التى تركوها نلتقى بمصبح عن ذلك الفهم القاصر للحضارة العربية فها هو حسين شريف الصحفي الاول (وربما المثقف الاول وقائد الجيل المعترف به) يكتب عن (حاجتنا الى كتاب وشعراء) فيقول (ان الحوادث ترشدنا والتاريخ يدلنا ان الكتاب والشعراء فى كل بلد وفى كل جيل قادة الامم والشعوب ومفتاح قفل القلوب والعقول) وها هو النا يكتب قصيدة يوسى فيها استاذه السورى فؤاد الخطيب الذى دخل معترك السياسة فى السعودية بأحلام كبار ثم عاد مهزوما مبدد الاحلام يكتب فيقدم له الوصفة السحرية التى ظل هو (اى النا) وجيله يتعاطونها بانتظام المدمنين

فارجع الى الشعر وارتع فى محاسنه
فالشعر يكشف ما بالمرء من غمم

ويقول عبدالرحمن شوقى فى مقام احتفاء بعودة اول بعثة سودانية الى بيروت

حتمتموا كالنصر والفتح معا
تشيدوا أسمى اركان الادب

فكأنما قد فرغ السودان من تشييد اركان الاشياء الاخرى ولم يبق له سوى ان يكرس جهده لتشييد أسمى اركان الادب

اما توفيق احمد البكري فيتساءل متمنيا

ليت شعري هل نرى فى قومنا   علما يملى علينا كتبا
أم نرى كتابنا فى صحف   ينسجون القول وشيا ذهبا

ويعبر عبدالله عبدالرحمن عن امانى جيله فى مقطوعتين واحدة بعنوان «اريد» يقول فيها

اريد البلاد تحل الاديب   وتجعله نارها الاشهبا
أريد الاديب نهر النفوس   ويذكى الشعور اذا ماخبا

والاخرى بعنوان «لا اريد» فيبدؤها هكذا

لا أريد الاديب ان يتظلم   واريد الاديب يبنى ويهدم
لا أريد الاديب يلزم الصمت   فما كل وقت الصمت يلزم
لا أريد الجهول يخطب فى الناس   وارجو الفصيح ان يتقدم

وهكذا يكرس لشؤون الادب خمسة ابيات من مقطوعتين لا تزيدان فى مجموعهما عن عشرين بيتا

ومهما يكن من امر فان هذا الولع بالادب العربى القديم هو التفسير لوحيد الصحيح لتلك التقليدية الممعنة التي لجأ اليها الجيل الجديد فى اساليب تعبيره وحيلته وبالرغم من ان بعض الباحثين (٢) قد ذهبوا الى تبرير ذلك التقليد بتشابه البيئتين السودانية والعربية فى طبيعتها الصحراوية الا انه قد فات عليهم ولاشك ان الجيل الجديد هو اقل الاجيال التصاقا بالبيئة الصحراوية وانه اول نتاج للمدنية وللحضارة وان الاثار الصحراوية فى ادبه وفكره ليست اكثر من تأثر وتقليد للادب العربى القديم وكما يقول البنا «واذا بدا لك فى شعري شيء يتعلق بالبادية فان لمعلقة لبيد وطرفه وامرىء القيس الاثر البالغ وان شئت ان تلتمس ذلك فى اوزان شعري وما رآه الناس فى كتاب التحفة السودانية من ارجوزة هي مقارنة بين حياة البدوى والحضرى فتي هو درس وضعته لطلبة المدارس الاولية» انظر جريدة الثورة ٢٧ يناير ١٩٦٤

(٢) الدكتور [illegible] فى [illegible] الشعرية فى السودان ص ١ والدكتور [illegible] فى الشعر الحديث فى السودان ص ٤٣

وبالرغم من كون هذا الاحتجاج باقوال شاعر من الجيل لاينهض دليلا وحجة على ماذهب اليه الا ان الدراسة المتبصرة لاثار الجيل الادبية تكشف لك بكل وضوح ان البادية السودانية هي اخر ماعبر عنه اولئك الادباء وان التعبير عنها لايحتج ابدا الى تلك التقليدية التي اتخذوها منهجا لتعبير ولكن الثابت انهم بدوا نوعا من الحنين الى البادية وحياتها المبسطة الخالية من قيود المدينة وتعقيداتها والبادية التى تحدثوا عنها بادية غير محددة وهي بلا شك صدى للبادية لتي كان الشاعر العربي القديم يمرح في ربوعها

وهذا الموقف الخاشع المتطلع حيال القصة الادبية مع غرابته لا يستعصى على التفسير والتبرير فقد كان الجيل باكمله مدفوعا في هذا الاتجاه بعوامل عديدة ومتشابكة كان هنالك نوع الثقافة التي تلقوها وكان هنالك النهضة لعربية الناشئة في مصر والشام وكان هنالك الوضع السياسي في السودان ومايفرضه عليهم من التحرر والمداراة اما ثقافتهم فقد غلب العنصر لغالب عليها العنصر اللغوي والعنصر الديني فلاول مرة يتم لقاء حقيقي بين المثقفين السودانيين واصول اللغة فراهم يدرسون امهات الكتب العربية (٣) بأساليب علمية حديثة كما يدرسون الفقه والشريعة بصورة موسعة واكثر تقدما من اساليب الازهر القديم ولذلك فان هذا الجيل هو اكثر الاجيال معرفة باللغة والدين وهو الجيل الوحيد الذي افلح في تخريج علماء لغة مشهود لهم من الجميع وعلماء في الدين لايقلون علما عن رصفائهم في مصر والشام وكان بامكانهم ان يكتشفوا هذه الحقيقة بعقد ادنى مقارنة بين معرفتهم ومعرفة الجيلين السابقين وهي عملية لابد انهم قاموا بها وتيقنوا من نتيجتها فعادوا باطمئنان ممزوج بالحسرة على ذلك العلم الغزير المضيع ولاشك ان مفكري الجيل وقادته كانوا وهم يحلمون بعودة الماضي العربي بأيامه الحافلة يتخيلون انفسهم في ذلك الماضي ادباء وشعراء لا مهندسين واطباء وهذا مردود الى ان الاستعمار لم يحاول تزويدهم بالجانب العلمي الجاد من ثقافته مكتفيا بتلقينهم مبادىء اللغة الانجليزية التي تكاد ان تكون نصيبهم الوحيد من ثقافة الغرب ولم تمكنهم تلك المبادىء من أي لقاء حقيقي بتلك الثقافة

٣) ومن كتب متلقاه في كلية غردون على ايدي فطاحل الاساتذة المصريين مثال [illegible] والعمراوى وعبد الرؤوف سلام وفؤاد الخطيب والجداوي وغيرهم وما كان مقررا من كتب مثال احياء علوم الدين للغزالي [illegible] في [illegible] مذكرات يوسف بدري محمد عثمان ص

الى جانب هذا كان هنالك النهضة الادبية في مصر والشام والتي كان صداها يتردد في السودان وبقية الاقطار العربية فقد شهدت تلك الايام امجاد شوقي وحافظ ومطران وغيرهم من رواد النهضة الادبية في العالم العربي وكان الشرق كله يركز على انجازاته الادبية القديمة ويقف موقفا من الفخر والمبالغة حيال رواده احدد الذين كانوا بمثابة مظهر من مظاهر الانتصار القومي وبهذه الصفة قوبلوا بتكريم بالغ على اساس انهم حملة التراث العربي ومجدديه وقد تأثر الفكر السوداني بهذه النهضة الجديدة المحفوفة بكل مظاهر التكريم والحفاوة وراء تأثر خطى روادها اكثر مما يتأثر الاساتذة القدماء الذين اخذوا عنهم وهناك مظاهر فردية لهذا التأثر تتجلى في تقليد مدثر البوشي لشوقي في همزيته عن السيرة النبوية جريا على نهج البوصيري، وفي قصيدة البنا عن عثمان بن عفان والتي تذكر بعمرية حافظ ابراهيم بشكل قوي ولكن المظهر الجماعي والاساسي للتأثر يبدو في تركيز الجيل كله على مسألة العودة الى عهود الحضارة العربية الزاهية وتباكيهم على ضيعة الاسلام واللغة العربية

ومهما تكن المؤثرات الثقافية من القوة والنفوذ فانها وحدها لا تفسر الوضع العام للجيل ولا تبرر اتجاهاته السلفية ولكنها تتضامن مع الوضع السياسي لتعطينا صورة عامة عن دوافع تلك الاتجاهات والوضع السياسي يومئذ كان اشبه بالاختناق كان هنالك حكم اجنبي حديدي القبضة يحيا بذاكرة مفتوحة على هبة السودانيين بقيادة المهدي وآفاق الوطنية والحماس التي يمكن ان يرتفعوا اليها وكان هنالك حرص من جانب الاستعماريين على عزل السودان عن مصر وكفاحها السياسي في العشرينات الاولى من القرن العشرين وكانت السلطة بعد تجربتها مع المثقفين المصريين تنظر الى جميع المتعلمين بحذر وقلق وتتخذ من اساليب الحيطة والتوقي ما تضمن به تقليم اظافرهم النامية وفي هذا الجو من التربص لم يكن بد من التعامي عن الواقع والتعلق باذيال الاحلام المدبرة فترى الجيل يكتب في المسائل السياسية او الاجتماعية بحذر وحياء مستعملا في ذلك اسماء تنكرية كانت من الكثرة بحيث تثير الدهشة فكان هنالك ابن السودان وابن رجاء وابن حلا وزهير ويس وطوبجي وابن الشعب وح ش وكثير غيرهم وحتى في مجال المناقشة نجدهم يتحدثون بحذر وفي الخفاء ويحدثنا الدرديري محمدعثمان في (مذكراتي) عن جماعة من اصدقائه كان يجتمع بهم لمناقشة الشؤون العامة وكان لقاؤهم كل مرة في بيت واحد منهم ولكنهم كانوا يعقدون «هذه الاجتماعات

تحت اسم جمعية ترقية الاكل البلدى عملا على التعطية والتوقى لبطن الرقباء اننا نجتمع لاكله شهية فحسب وهم لايدرون مايدور بعدها من حديث وبقاش» مذكراتي ص١٢

وتحت هده المراقبة الصارمة فقد الجيل كل مقدرة على الرؤية السياسية وظل حبيس احلام عامضة لم يصح منها الا على الرجة العنيفة التي صحبت الحرب العالمية الاولى ففتح عينين لم تألفا الضوء ورأى عالما من النور والشعاع لم يساعده على الرؤية وانما جهر بصره واعشاه

لقد شهدت السنوات الختامية للحرب نشؤ الوعى القومي لدى الجيل الحفيد وبتأثير تلك الحرب وبزيادة عدد المتعلمين متحالفين مع الطبقة الوسطى بدأ ذلك الوعى يعبر عن نفسه بطريقة عشوائية وساذجة فبدأ الخريجون ينظمون صفوفهم يرفعون صوتهم قليلا قليلا ففى ١٨ مايو ١٩١٨ تم افتتاح نادى الخريجين وبعد تسعة اشهر من ذلك التاريخ ظهرت جريدة الحضارة وهى اول جريدة سودانية (لحما ودما) وبرغم ارتباطاتها التمويلية وميلها الواضح الى محاباة الانجليز الا انها بلا شك كانت مظهرا من مظاهر ازدياد نفوذ الخريجين وتدعيما لوضعهم الاجتماعى كما شهدت تلك السنوات انشاء الصندوق الاهلى الذي كان موجها للاعمال الخيرية وتطوير التعليم الاهلي وبجانب كل هذا ظهرت دعوة قوية الى التعليم ترى فيه السبيل الوحيد الى النهوض بناء على اقتناع مسبق بان ازمة البلاد هى فى الاساس ازمة جهل (٤) وقد سبق ان رأينا حسين شريف يؤكد ان الاستعمار ضرورة لا بد منها «لان كفاءتنا الذاتية تبعد بنا فى الوقت الحاضر عن حكم انفسنا بانفسنا» ولكن الربط المباشر بين التعليم والاستقلال لايظهر الا فى كتابات ثوار ١٩٢٤..

ان الوعى القومى يبدأ من هده السنوات ولكنه يظل بالنسبة لهذا الجيل عائم وغير محدد المعالم حتى يأتى ثوار ١٩٢٤ فينضج على ايديهم بصورة افضل وينفجر فجأة كالقنبلة الزمنية فى عام ١٩٢٤ ولكن دور الاحفاد الاساسى فى صياغة ذلك الوعى يتجلى فى بدرهم بدور ذلك التحالف الوثيق الذى قدر له فى النهاية ان يجلى المستعمرين وان يحكم البلاد تحالف المثقفين والطبقة الوسطى ضد الاقطاعيين وزعماء العشائر والطوائف واذا كان من الممكن

(٤) «بعث البلاد من الجهل وقلة التعليم مطلبا ضروريا حتى ان صفيفى الحروف السودانيين في مطابع الصحف كانوا اميين ولكنهم مع ذلك يصفون» سوق الذكريات سليمان كشه ص ٢٣

اعتبار قصيدة من الشعر نقطة في الزمن يؤرخ على اساسها فان قصيدة البنا النوبية الشهيرة هي النقطة التي بدأ منها الهجوم على معاقل الاقطاع وانتزاع السلطة القيادية من يديه وتسليمها للطبقة الوسطى بمتعلميها وتجارها

يهجم البنا على الطبقة الاقوى اجتماعيا فلا يترك لها عيبا الا ذكره ولا مثلبة الا اوردها . .

والناس في القطر اشياء ملفقة ... فلن تكشف فعن ضعف وعن هون
فمن غني فقير في مروءته ... ومن قوي بضعف النفس موهون
ومن طليق حبيس الرأي منقبض ... فاعجب لمنطلق في الارض مسجون
واخر هو طوع البطن يبرز في ... زي الملوك واخلاق البراذين
وهيكل تبعته الناس في سرف ... كالسامري بلا عقل ولا دين
يحتال بالدين للدنيا ليجمعها ... سحتا وتورده في قاع سجين

واذا كان الشريف الهندي (٥) قد تسرع واشتكى البنا بحجة انه هو المعنى بذلك الهجاء الحاد فانه لم يكن بعيدا جدا عن الصواب فمع ان الشريف لم يكن هو المقصود شخصيا الا ان طبقته كلها مقصودة بذلك الهجوم ولو كان للطبقات شخصيات اعتبارية لكان من حق الطبقة الاقطاعية ان تشكو البنا لانه قذفها وسبها واشان سمعتها

ومن الناحية الاخرى لا يهمل البنا مهمة الدفاع عن الخلف المقدس فنراه يتحدث مدافعا عن مصالح الخريجين ومصالح التجار وهم العنصر الاساسي في الطبقة يومئذ وفي كل وقت :

يا أمة جعلت طرق العلاء فلم ... تسبق لغاية معقول ومخزون
فللمدارس هجران وسخرية ... وللمتاجر ضعف غير موزون
وللمفاسد اسراع وتلبية ... ولا التفات لمعروض ومسنون

وبهذه القصيدة الهامة يفتتح البنا صفحة جديدة في تاريخنا الوطني فقد جاء من بعده رعيل كامل من الشعراء والادباء الذين صبوا غضبهم وسخطهم على رأس الجيل الوالد واصبحت العمائم (رمز ذلك الجيل) لا تأتي في شعرهم الا مقترنة باقبح الاوصاف والنعوت وقد ظلت هذه النغمة تظهر وتختفي في مناسبات متعددة ولعلها لا تزال تواصل ظهورها حتى في عصرنا الحاضر ولكنها

(٥) احد القادة الروحيين الثلاثة في البلاد ورجال الحل والعقد فيها

ى جميع الاوقات تدين للبنا وقصيدته الرائعة وإذ كان جيل احفاد الهزيمة مفخرة يواجهون بها الاجيال فهى ما قاموا به تجاه هندسة ذلك الحلف الذى قدر له ان يقرر جميع اقدار السودان ى المستقبل

انه من العسير حقا ان يعطى المرء ملخصا نهائيا عن هذا الجيل خاصة اذا انتهى الحديث عنه الى اعوام ١٩١٩ ـ ٢٠ و ١٩٢١ لانه ابتداء من تلك الاعوام يصبح صعب جدا الحديث عن اولئك الافراد كجيل فهم من ناحية قد تعرضوا لانقسامات متعددة بحيث اصبحوا اكثر فرقة وخلافا من ان يصبحوا جيلا موحد الاهتمامات ومن ناحية اخرى خسروا وثبتهم الكبرى عام ١٩٢٤ واستمر ذلك الحدث عن اغتيال (مادى وفكرى) لعدد ضخم من افراد الجيل ومن ناحية ثالثة واخيرة كان بروز الجيل التالى سريعا وقويا بحيث تحولوا (اى الاحفاد) الى ظلال واتباع وتشريفاتية ى الجيل التالى وانتهوا بطرق تدعو الى الرثاء ولا يمكننا ان نتصور معنى هذا الموت الا بمتابعة الجيلين القادمين

الوثبة - ١٩٢٤

ليس من وصف [illegible] نعبر عن ثورة ١٩٢٤ السودانية، من وصف الوثبة فقد تجمعت بتلك الثورة كل خصائص الوثبة بما في ذلك عنصر المباغتة والطفرة وعدم الاكتمال [illegible] وكانت لها دوافع الوثبة، وقوة انطلاقه، ومقدرته على الاقتحام والمصادمة [illegible] وكانت لها نفس خصائص الوثبة التي ينتظره في نهاية تحليقه القصير، أو على الأقل فيه الخيبة التي تنتظره. فعلى حين غرة انقلبت الجماهير بنفسها من وهدة اليأس والخذلان، وهبت تتوجه للاستعمار ضربة مباشرة كضربة الرمح [illegible] المجتمع بقوى الوطنية، وتستكمل صحوتها، كأن كل شيء قد تم، وكأن الفجر قد تحقق بعد طول اليأس والقنوط [illegible] وكما أن الوثوب يوحي بالعثرة والسقطة والوقوع كنتيجة متوقعة وملازمة، فقد وثبت الثورة كالفرس الجامح، لتهبط في خندق الهزيمة الممتد على الجانب الآخر ويمتلئ جسمها بالرضوض والكسور.

ان معنى الوثبة يزداد جلاء حين نتأمل تأملا شاملا ظروف الوضع لدى نشأتها وعناصرها في السودان، فكيف كان المثقفون يتصورون ثورة عنيفة شبيهة بما يكون [illegible] وكانوا [illegible]، عن بث الثورة بإنشاء علاقات غير معادية مع الاتحاد الاسلامية القديمة وكان الوعي السياسي يرزح تحت اثقال فادحة من الشعور بالامتنان تجاه المستعمرين الذين ادخلوا على البلاد مظاهر حضارة سطحية وحموا في قبضتهم الحديدية عليه الأمن والنظام في المجتمع ويفضل هذا الشعور اشتركت البلاد في الحرب العالمية الاولى جنبا الى جنب مع بريطانيا وحلفائها ووجهت كل طاقاتها ومقدراتها الى تعضيده ومد جهود الاستعمار الحربي [illegible] وفي تلك الفترة شهدت البلاد مظاهرات الولاء التي جمعت من اعيان البلاد ووجهائها تعضيدا لموقف بريطانيا في البلاد [illegible] وبعد الحرب ذهب وفد من قادة السودان الروحيين لتقديم التهنئة لملك الانجليز بمناسبة الانتصار [illegible] وبجانب كل هذا كان هنالك جهاز الارهاب والمطاردة الذي يقوده قسم المخابرات في حكومة الاستعمار الانجليزي بالسودان وكان هناك الجهل والتخلف الفكري [illegible] مدى تعبئة الجماهير وكانت هناك سيادة الاقطاعيين وزعماء العشائر وسيطرتهم على المجتمع وتوجيههم اياه الى

مايحقق مصالحهم الطبقية المرتبطة اوثق الارتباط بالنظام الاستعماري القائم في البلاد

في هذا الجو المظلم المضاد بدأت الطلائع الثورية عملها في السودان ولكي يتضح لنا الى اي مدى كان هذا الجو مضادا ومعاديا ينبغي ان نذكر ان اولى خطوات الثورة تمت كرد فعل لاجتماع عقد بدار السيد عبدالرحمن المهدي في ١٠ يونيه ١٩٢٤ والذي قرر فيه المجتمعون من الاعيان والكبراء ان يطالبوا بانهاء الحكم الثنائي عن ان تنفرد بريطانيا بالحكم دون مصر كما كانت جريدة الحضارة تنشر مقالات مثيرة في نفس المعنى مطالبة بحل «الشراكة» واخراج المصريين منها مع بقاء الانجليز سادة ومعلمين للشعب حتى يقوى ساعده ويتمكن من حكم نفسه بنفسه وهكذا انفجرت الثورة في جو معاد وفي لحظة كان فيها الاستعمار في ذروة قوته وجبروته والقوى الوطنية في اسوأ حال من التشتت والتخلف وانعدام الوعي بعبارة اخرى انفجرت الثورة في لحظة توفرت فيها كل عناصر الهزيمة وتضافرت ضدها كل الظروف لا لتعوق سيرها فحسب بل لتخنقها في المهد ولكن الثورة انفجرت بالرغم من كل ذلك.

ويحق لنا ان نتساءل كيف تم هذا وبأي باعث ولاية غاية وما هي العوامل التي جعلت من هذه الثورة حتما مقضيا قدراً واقعا في مجتمع متخلف وممزق ومقهور؟

هنالك حقيقتان تساعدان على تبرير هذا الوضع وازالة عنصر التناقض الذي يشتمل عليه. الحقيقة الاولى هي ذلك التحالف الوثيق العرى الذي نشأ بين المثقفين والطبقة الوسطى الناشئة في البلاد وخاصة في المدن والتي كانت تعاني من قسوة الاستعمار ومنافسة تجارة الاجانب وحلفائه الاقطاعيين والتي تحملت ويلات المجاعة والغلاء عام ١٩١٤ وويلات الحرب خلال اعوام ١٩١٤ ـ ١٩١٩ وخرجت من كل ذلك منهوكة مضعضعة ولكن بعقلية شديدة الطموح وقد استطاع المثقفون بروحهم الثورية ان يربطوا قضاياهم بقضايا الطبقة الخليفة وان يعبروا عنها احسن تعبير في مذكراتهم المطلبية التي كانوا يرفعونها الى المسؤولين من حين الى حين ففي عام ١٩٢١ كتب علي عبداللطيف مقالة نارية كان اهم بنودها (كما يروي الاستاذ حسن نجيله نقلا عن السيد احمد فهمي الريح مدير جريدة الحضارة) كالاتي
١/ زيادة التعليم

٢/ نزع احتكار السكر من يد الحكومة ووضعه بيد التجار
٣/ الوضع فى مشروع الجزيرة
٤/ اسناد بعض الوظائف للسودانيين

ولم تر المقالة النور فقد اعتقلتها سلطات المخابرات قبل نشرها وحوكم البطل على عبداللطيف بسببها بالسجن لمدة سنتين ونزعت رتبه ونياشينه . وفى عام ١٩٢٢ أصدر على عبداللطيف وزملاؤه نشرة سموها «مطالب الامة» وتكررت فيها نفس المطالب - مطالب المثقفين والتجار واضيف اليها امور عامة عن المزارعين والضرائب وحين اشتعلت الثورة بالفعل كانت الشرارة الاولى مظاهرة فى امدرمان قادها وبدأ الهتاف فيها التاجر عمر دفع الله فكان بذلك اول من هتف هتافا سياسيا فى السودان وخلال الثورة ظل هذا التحالف يقوى ويتغذى حتى انه فى نهاية المطاف كان المسحوبون السياسيون جميعا من ابناء الطبقتين الحليفتين .

اما العامل الاخر الذى عجل باشتعال الثورة فهو تأثر المثقفين السودانيين باحداث ثورة ١٩١٩ فى مصر . فقد كانت طبيعة الثورة المصرية تستدعى استجابة عنيفة وكانت طبيعة المثقفين السودانيين الحالمة والمشبعة بالعواطف العربية الاسلامية تمدهم احسن اعداد لتلك الاستجابة العنيفة اما الثورة فكانت حدثا رائعا ملهما كانت هبة شجاعة وقف فيها الشعب المصرى الاعزل ليواجه ببسالة نادرة طغيان الاستعمار الانجليزى المنتشى بخمر الانتصار فى حرب عالمية وبمجد الامبراطورية التى لا تعرف عنها الشمس . وكانت مرتبطة اروع الارتباط باسماء اكثر الشخصيات الثورية جلالا فى الشرق العربى مصطفى كامل كتاريخ وسعد زغلول كقيادة واذا تذكرنا ذلك الارتباط القديم العميق بين الشعبين المصرى والسودانى فان هذا التأثر

وبفضل هذين العاملين استطاع جيل الوثبة ان يشعل ثورة عاتية على النطاقين الشعبى والعسكرى متحديا كل الظروف المضادة والمعاكسة ومندفعا اندفاعا رومانسيا لا نملك امامه الا التأثر والاعجاب ومهما يكن من امر هذه الثورة ونتائجها فهى بلا شك فاتحة الكفاح السياسى فى السودان وهى درس الشعب الاول فى التضحية والثبات واول مذبح للحرية شيد فى البلاد وقدمت عليه بسخاء فريد أروع القرابين والتضحيات .

وبالرغم من ان ثورة ١٩٢٤ كانت ثورة سياسية الا انها مع الاسف لا تقدم

نا بوضوح معطياتها الأساسية في الفكر السياسي فقد طبق في الهيئة تسبيح
في حوم من الحساب والتناقض في اتجاهات قوال الزعماء [illegible] فبينما يقف علي
عبداللطيف في الطرف الأقصى كرائد للقومية السودانية يقف بعض رفاقه في
الطرف الآخر مع الدعوة العربية والدعوة الإسلامية [illegible] ويقف حتى ينادي
بعضهم بوحدة وادي النيل يكتفي آخرون بمجرد [illegible] مصر كحكم
السودان حتى تنتهي فترة الاستقلال السياسي [illegible] والشيء الوحيد الذي تم
اجماعهم عليه هو رفض الاستعمار الانجليزي [illegible] ولا [illegible] بصورة
انشاء علاقة ما مع مصر.

وعلى الصعيد الأخلاقي تتكرر نفس المسألة ولكن [illegible]
الفكر السياسي للثورة [illegible] فإن الفكر الأخلاقي [illegible] وبكيفية
محافظة. فقد اختار الثوار [illegible] الأخلاقية [illegible]
[illegible] الأثر [illegible] وهذا الأمر لا يخلو من خروج على منطق الثورة المعروف عن
كل الثورات السياسية [illegible] الأخلاقي [illegible]
[illegible] ولكن ثورة ١٩٢٤ [illegible]
[illegible]
من الأخلاقية موروثة [illegible]
معنى الرجولة والشجاعة [illegible]
[illegible] وصبح [illegible]
[illegible]
الآخر [illegible]
[illegible] مع [illegible] وحشية
[illegible]
ويروي المؤرخون [illegible]
موافقة [illegible] شخصية [illegible]
[illegible]
[illegible] وهذا مع
كونه منطق الأخلاق موروثة [illegible] السياسي [illegible]
شيء [illegible]
[illegible]
حتى اليوم يصرون على ذلك [illegible]

والانحدار الاخلاقي لوحيد هذا الجيل هو خروجه عن طاعة الجيل الوالد بلا موازنة غير مكترث بالعصيان بل ممعنا الهجوم بعد ان يئس من صلاح امورهم وعودتهم الى طريق الوطنية الصادقة ولا شيء وجع من سخرية صالح عبدالقادر في هجائه لبعض الذين كان على عبداللطيف بصفعهم في صدر منزله

الا ذهب فوزى او خيرى رجال الشرع صاروا كالمعير
الا بيت اللحى كانت حشيشا فتعلفها خيول الانجليز

و عصبه مدير لبوشى المصريه المحكمة الالفاظ

فقال رجال لا وربك انهم حقيرون حقا ان يقال الفواصم
نفوس نسب فعل لمميل لافعلها وانف انى الاعداء رغم اللغرم
فما رجع العلماء الا عمائم تساوم فيها وهى فيها سوائم

وهذا حطاب محى هو هذا التساؤل المحرج الذى يقدمه الاستاذ عبد عبدالنور في شعر شعبى

ب كبار البلد الامين السكات دا نصحو لامتين
نبنو لنا الرأى المتين النكتم نسعر مشين

مانشوفوا الفقر اللعين والغرابا المتهدلين
وال نبكو والصابرين والرزايا ، بتروح متين

مانشوفو الذل والهوان مص دمنا وعقب امتهان
عمونا وحفظوا الامان بالسانيت والحيران

وعلى كل فان هذا الانحدار الوحيد لبس قليل الاهمية فمنذ ان قام الثوار بالخروج على طاعة الجيل الولد نصرة لافكارهم السياسة اصبح مجال العمل السياسي مؤمنا ومعرولا عن دقائق الاوضاع المماثلة وعلى ايدى الاجيال التالية ظل هذا الوضع يدعم ويقوى ويصبح حقا واجبا للجيل الاس ان لا تمى عليه ارادة الجيل الاب في مجال الفكر السياسي ومهما يكن مستوى هذا الوضع من الشرعية في عصرنا الحاضر فأننا بلا شك ندين به للمحاولة الاولى من جانب الثوار.

وبعكس هذين المجالين (السياسي والاخلاقي) يبدو أنجاز الثورة في المجال الثقافي واضحا ومتميزا فقد انجبت الثورة ادبا يختلط فيه التجديد بالتقليد وتتلالى فيه اصداء جبران بشوقي والمتنبي ولكنه يظل مع ذلك خطوة واسعة الى الامام اذا ما قورن بادب التيار الاخر ولا مجال للمقارنة اطلاقا بين انتاج البنا مثلا ونتاج توفيق صالح جبريل - ليس في المضمون فحسب وانما في الشكل الفني ايضا. ومن الناحية الاخرى لا لقاء اطلاقا بين نثر الامين على مدني من جهة وحسين شريف من الجهة الاخرى ولا لقاء ايضا بين افكار الامين على مدني النقدية وافكار غيره من المنضوين الى تيار الانفصال عن مصر فهو لا يقر تقليد المتقدمين مهما كان علو كعبهم في الادب ويرى ان تقليد المحدثين اخف وطأة واقل ضررا وان كان الامرين في نظره من الشرور التي يجب تفاديها. وهو لايعتبر شاعر التقليد شاعرا ولايرى في نظم البنا اى عنصر من عناصر الشعر ويعتبره تقليدا باهتا ومسخا مشوها

وقد حفظ لنا التاريخ قليلا جدا من الكتابات النثرية التي خلفها الثوار ولكن بمقارنة هذا القليل مع انتاج التيار المناوىء نجد فرقا ظاهرا في الاساليب. فالثوار ينتهجون لغة لا تعمل فيها ولا تكر ر وواضح انها تستهدف الافهام بلا زخرف ولا بهرج. فمثلا جاء في احد مناشير الثورة السرية :

«اخوانى لقد سار الانجليز على سياسة التفريق بين المسلم والقبطى بمصر زمنا طويلا واقاموا الفتنة في البلاد وقد حل بالمصريين الشقاء والتعاسة كما لاحظتم ولما اتحدوا واتفقوا نجحوا وايدهم الله فان يد الله مع الجماعة. وهذا درس نافع لكم يجب ان تضعوه نصب اعينكم وتتحدوا مع اخوانكم المصريين حتى تصلوا الى غرضكم من الاستقلال التام» فهذا حديث لم يقصد كاتبه الى تحليته باى حيلة لغوية وكل بلاغته تنحصر في بساطته الشديدة ومقدرته على الافهام واذا كانت هذه القطعة لا تدل على معرفة عميقة باللغة او تطويع كامل لها فانها شديدة الدلالة من حيث كونها تشير الى خروج عن طاعة اللغة وتحرر من سحر الكلمات وكاتب هذه القطعة لاتقوده اللغة وانما يقودها مختر اقرب الطرق واسهل التعابير ليعبر عن معناه ولكن حسين شريف مع تمكنه من اللغة ومعرفة بدقائقها يظل أسيرا لمعرفته تلك فيكرر ويروق ويحشد المترادفات ويبنى للمجهول بالرغم من انه من اوليات الكتابة الصحفية ان لايبنى الكاتب على المجهول «على ان الامم ليست بقطعان من الانعام يتشارك في رعيها ولا باسراب من الحيوان يتعاقد في ملكها وانما هى جماعات من البشر كان الاصل

فيها ان تكون ولية امرها وحاكمة نفسها ثم قضت عليها احوالها ان تكون في درجة تحتاج فيها الى ارشاد فيجب ان يتولى ذلك عنها سلطة واحدة تحسن القيام بالمهمة لا سلطتان او سيادتان ولو كانت الدلائل والوقائع والتجارب تساعدنا على الوثوق بان جيراننا يستطيعون الاحتفاظ بوديعتنا الوطنية المقدسة لما فصلنا غيرهم وما اخترنا سواهم اما والامر كذلك فمن الخرق والحمق ان نغرر بانفسنا ونقامر بكياننا ونقذف بمستقبلنا في هوة لا قرار لها ولا يعلم الا الله ماذا حوتها المظلم من المصائب والويلات فلم يبق لنا اذن الا باب واحد هو الانكليز».

وهذا الاختلاف بين الاسلوبين يبدو نابعا من تنوع مصادر ثقافة التيارين فعلى حين يركز الثوار على الثقافة العربية المجددة الواردة من مصر نجد التيار الاخر يركز على الثقافة العربية القديمة التي تلقاها في المدرسة بصورة موسعة وفتن بها ايما افتتان ولكن الثوار بالرغم من ذلك لم يذهبوا في التجديد الى نهاية الشوط فاختلط في ادبهم الجديد بالقديم بحيث اصبحنا نجد القصيدة جديدة من ناحية المضمون قديمة من ناحية الشكل او نجد لدى شاعر من الشعراء صور جديدة مبتكرة تتلوها صور تقليدية محنطة في نفس القصيدة. وفي هذه المقطوعة لخليل فرح تنطبق هذه الحالة انطباقا تاما فيبدأ بهذا الشعر الجديد في مبناه ومعناه:

وقف عليك وان دأبت فؤادى	سيان قربى فى الهوى وبعادى
يا دار عنتكنى ومهد صبابتى	ومثار لهواتى واصل رشادى
كم فى سمائك للنبوغ وفى ثرى	واديك كم للعبقرية وادى
لك كالطبيعة فى الخمائل روعة	وعليك من سحب الجلال هوادى
ايه فديتك يا بلادى الهى	من حاضر بين القلوب وبادى
فعلى كلا الحالين نحن ودائع	كودائع لك فى السحاب غوادى

ثم يتقمص فجأة اهاب الشاعر القديم داعيا بالسقيا ومفتخرا باسلافه الزهر الوجوه المعتدلين كالرماح

رعيا لاباء قضوا شوقا وما	حييت عليهم منك بيض ايادى
وادى الربيع وفى ربوعك فتية	كانوا بطلعتهم ربيع النادى
زهر كلل وجوههم من نبلها	زهر الكواكب للعيون بوادى

ابناء يعرب حيث مجد ربيعة — وبنو الجزيرة حيث بيت اياد
متشابهون لدى المعارك كأنما — نبتت رماحهمو مع الاجساد
ماذا يقول المرجفون وكلنا — فى الله والاوطان اهل جهاد
اصحاب مائدة واسرة منزل — ونتاج بادية وفتية وادى
هذى ديارهم وتلك ربوعهم — فسقى ثرى واديك صوب عهاد

ولدى مدثر البوشى نجد الوضع الاخر المعنى الجديد فى صياغة تقليدية لقصيدته :

سلام على الدين الحنيف وفتيه
على عهدهم ترعى الذمم والمحارم
تبدل ماضينا ولم تبق سنة
وصار لنا مما نعد المواسم
اذا شئت يا ذات الثنايا فشاهدى
بنيك على مر الليالى فهاهم
أغاروا وقد أنحدث لما تحولوا
عن العهد واستولى القياد سواهم
فبيناهم للامر والعرض سالم
اذا بهم يعصون والانف راغم
يقال رجال لا وربك انهم
جديرون حقا ان يقال العواظم
نفوس ابت فعل الجميل لاهلها
وأيد الى الاعداء نعم اللهازم
فما روع العلياء الا عمائم
تسلوم فينا وهى فينا سوائم

ويتكـرر هذا الموقف حتى فى فن الغناء فنجد نص الاغنية نسخة دارجة للقصيدة العربية الفصيحة وتزاوج بين المعانى التقليدية والمعانى المبتكرة وبين الالفاظ والاساليب الجديدة من ناحية والاساليب القديمة المعروفة عن الادب العربى الفصيح من ناحية اخرى فها هو الخليل يحشد فى قصيدة غنائية باللهجة الدارجة تعابير مأثورة واسماء عربية صار ذكرها فى الشعر تقليدا ثابتا كأنما لايوجد غيرها فى اللغة .

اسقنيها الصافيه لم حباب   دق كاسى وقل لى حباب
يوما صافى وحلى الصلب   . نديم كيف مرح الشباب
نحن حين قصدنا الصب   نف دور الموردة ام عتاب
بيك مشرع حوله ورف   ودنك بيوتن نحت الصناب

ويلتجأ الى اسلوب في اغنية اخرى لبأتى بهذا الحماس الناقص

ينبيد سائل الحنا حباك حياك الحنا

ثم في اغنية ثالثة يأتى بهذا الحماس التام

سه دانه فى الدلال ماضى   هل تناسيت عهدا الماضى
فوق صحيفة قلبى كم ماضى   ماضى تحكى الماضى

ويلجأ شعر عبد الرحمن الى استعمال المأثورة في اغنية

واسد البدر من سناكا   وحدى النحل من لماكا

ويتكرر هذا الموقف لدى جميع شعراء الحقيبة الغنائيين وعندما تبدأ النهضة لعنية لم تعد يصبح هذا الاتجاه متلبدا ثابتا حتى ان بعض الاغاني مما نسميه اليوم حقيبة الفن يستعصى أول الامر على السامع ويحتاج الى التفسير. وقد يسهم هذا الوضع في تصليب المراقب حتى ينطقه بمثل هذا القول «لقد سمعت في السودان من شعراء الشعب قوما ينطقون لعامة الناس بما لا يدركه في غير السودان الا المتأدب المتوفر على دراسة اللغة فهو ينشد للناس بلغة عامية يتحدث عن الشادن والاسد والرحال والمسارب وما أظن عامة شعب عربي اخر تدرك هذه الالفاظ معنى» محمد فريد ابوحديد في مقدمته للديوان العباسي

وإذا كانت الوثبة قد خلقت للشعر الغنائي سلالته الاولى فإنها قد خلقت الاغنية الحديثة نفسها في الاساس ووهبتها وجودها الاول. وقبل الوثبة لم تكن الاغنية بصورتها الحديثة معروفة للجمهور وكان يحتل مكانها الغناء الجماعي والطنبور. فلما جاءت الوثبة جاءت معها اولا بموهبة غنائية فريدة هي موهبة الخليل الذى يقف حتى اليوم قمة في حقل الفن وجاءت معها ثانيا بالاغنية السياسية التي لعبت دورها لا تباهيها فيه حتى اغانينا الوطنية المعاصرة. وعى

انغام «يا أم ضماير قودى الرس/ واهتفى فليحيا الوطن» خرجت مظاهرات الشمس ومظاهرة طلبة الكلية الحربيه ومواكب العسكريين المسلحة التى اصطدمت بجنود الاستعمار فى قلب الخرطوم عام ١٩٢٤ ولكن الاغنية كان من الممكن مع ذلك ان تمضى على الاساس الجماعى القديم لولا ان تدخل فى الامر عزام لثوار (كجزء من الجيل الجديد) بالحضارة العربية القديمة ومحاولتهم لاحيائها ومسترشدين باخبار الخلفاء والامراء وصلوا الى نتيجة هى ان الغناء العربى يسمى ان يكون سماعا وليس اشتراكا فى الاداء ومن هنا نراهم يحررون الاغنية الجماعية السودانية وفى خلفية اذهانهم ان السماع اقرب الى الاصول العربيه لذلك الفن وبالتالى اوفر اصالة ونبلا

ولا تقف جهود الثوار عند هذا الحد فقد كانوا يولون الفنون عامة اهتماما خاصا لاشك انه نابع من طبيعة ثقافتهم الادبية الحالمة فنرى عرفات محمد عبدالله (احد قادة الثوار) يشترك فى تمثيل عديد من التمثيليات ويشتهر بالاجادة ويعرف ان البطل على عبداللطيف كان يشترك فى الاخراج ويجهز الازياء والسيوف للممثلين وعلى كل فان ثورية هذا التيار الزمنيه بمواقف اكثر تقدما فى جميع المجالات فنجدهم اشد الناس الحاحا على مسألة ازدياد التعليم واشدهم فهما لها اذ انهم استطاعوا ان يكتشفوا العلاقة الوثيقة بين انتشار العلم وانتشار الوعى السياسى كما اسهم فى طليعة المدافعين عن تعليم المرأة وبالرغم من ان التيار الاخر اشترك فى هاتين المعركتين الا انه لم يكن محدد الموقف ولا محدد الدوافع ففى مجال التعليم نراهم يكررون المطالبة به ومدحه ولكن دون هدف محدد وتزخر دواوين شعراء الجيل الجديد بقصائد تحض على التعليم وتندمر من الجهل ولكن الربط بين انتشار العلم والتحرر الوطنى لم يكن واضحا كما تدل على ذلك الامثلة

يقول عبدالله عبدالرحمن

وانى رأيت الجهل الام صاحب واكثر ما يولى الشعوب ركودا

ويقول محمود انيس:

فبددوا ظلمات الجهل وانحدوا
وحاذروا من خلاف بينكم نجما

ويكتفى حسن عثمان بدرى بالتذمر:

أشياء لو نظرت عيناك اصغرها لثرت حب العمى عن رؤيه المقل

حهل مقيم واخلاف مقسمة   بين النعلق وبين الغدر والحتل

ويصح البنا اكثر حين يربط بين التعليم والمدنية ـ المدنية وليس الاستقلال

ثم انشروا من شريف العلم نفعه
فانما هو معنى كل تمدين
العلم زين وللاخلاق رفعته
ان قرنته يد فى خير تربيين

وفى هذا يلتقى البنا مع احد قراء الحضارة فى رسالة له نشرت عام ١٩١٨ وذلك فى قوله «بديهى ان انتشار التعليم بين افراد الامم هو عنوان سعادتها وارتقائها ولما كانت هذه هى الغاية الوحيدة التى نرمى اليها رأينا الخ . . «فالامر بالنسبة لهم تقليد اعمى لمظهر من مظاهر الحضارة الغربية

ولكنه بالنسبة للثوار شيء اخر فقد كانوا يعرفون ان العلم مهم لكل الامم وان العلم يتفاوت من ناحية النفع والضرر فهناك ثقافة ضارة صارة لايرغبون فيها هى ثقافة الاستعمار وهناك ثقافة جيدة يرغبون فيها ويعتقدون ان مصر منهلها الاول ولذلك نراهم يهربون شبابا منهم الى مصر ليتلقوا الثقافة الوطنية المتحررة رغما عن انف الاستعمار الذى اقام فى وجوههم العوائق والصعاب.

ان الحسنة الكبرى للثوار تتجلى فى تخليهم عن الاعجاب المنبهر بالحضارة الغربية وتمكنهم من استشفاف عنصر الاستغلال والقهر الذى تنطوى عليه بالنسبة لشعبهم فلا نجد عندهم التقليد الاعمى ولا الحماس النظرى. ويتجلى هذا الموقف الحصيف فى معركة تعليم الفتاة التى بدأها الشاعر عبدالله محمد عمر البنا فلم يناقش الموضوع على صعيد انسانى او اجتماعى وانما لجأ الى اسلوب الترهيب والترغيب فشن هجوما ضاريا على النساء الجاهلات كأنها هن المسؤولات عن جهلهن :

واهجر سبيل الجاهلات فانما	بالجهل تمتهن البلاد وتخرب
هن اللواتى جارهن مروع	مما يقلن وقولهن مكذب
هن اللواتى زوجهن مهدد	بالفقر يدفق ماله او ينهب
هن اللواتى ذيلهن مصبغ	هن اللواتى طفلهن مترب

ولاشيء ابلغ فى الدلالة على ان القضية كانت بالنسبة للشاعر مجرد مسألة

نظرية من كونه هو وجمهوره ابناء لنساء غير متعلمات ولو كان حريصا على اقناع جمهوره بضرورة تعليم المرأة لما استغرقهم بهذه الصورة وفى نهاية القصيدة يتجلى اكثر فاكثر الطابع النظرى للقضية حين يقول عن المتعلمة

تلك التى رفعت بنى التلميذ فى
افق العلاء فأوغلوا واستوعبوا
ملكوا البسيطة شيدوا عمرانها
نشروا السلام فقربوا وتقربوا

وينبغى ايضا ان نلحظ ان البنا لايدافع عن تعلم المرأة على اساس ان التعليم حق بشرى للمرأة وانما لانه يرى فيه وسيلة لتفريخ زوجات صالحات وامهات مثاليات ويشاركه حسن عثمان بدرى نفس الرأى فيكمل الصورة معددا مزايا المرأة المتعلمة ·

عفى الملاك سيتها هنها المسرة تحطب
تلقاك فى حلق يكاد من اللطافة يسكب

وواضح ان موضعا اليوم من هذه القضية لا يستند مطلقا الى كون المرأة المتعلمة زوجة اصلح او اما ارشد وانما يستند الى اقتناعنا الثابت بحق المرأة كانسان فى ان تحيا وتختار وتنال نصيبها الشرعى من العلم والوعى والسعادة وبهذا المفهوم نجد انفسنا بعيدين جدا عن البنا وزميله وبنفس الوقت قريبين جدا من خليل فرح وهو يضع القضية فى اطارها الانسانى الصحيح

انصفوها من حياة نصفها حائر والنصف جسم خامل
علموها انها مدرسة لحياة ما اليها طائل

واذا وضح لنا مدى الاختلاف العميق بين تفكير الوثنة وتفكير خليل فرح، فانه من الواجب ان نذكر ان اصل هذا لم يكن موقف الجيل الجديد كله فقد كانت الـ... ـسة تقف ضد هذه الدعوة الجديد وتحاربها بصراحة ووضوح وترى فيها خروجا على الدين والخلق القويم

لقد انطلقت العقلية الثورية فى خلق تفكير علمانى بنفس الامور من ناحية صلاحها وعدم صلاحها لظروف البيئة السودانية وسواء وصل ذلك التفكير الى النتائج الصحيحة او اخطأ فاننا لا نستطيع ان ننفى عنه صفة التفكير ونصمه بالانقياد اما لدى التيار الاخر فقد طفوا الى النهاية مبهورين بكل ما

يمعل الاسعماريون ويقدرون في انفسهم ان كل ما يصدر عن الانجليرى الحصيف هو الصواب عين الصواب. وباسم هذا التفكير المستقل يمكننا ان نغفر للوثبة كل اخطائها

لقد إنتهت الثورة نهاية فاجعة وارداد الحل تمزقا وتمرقا فقضى من قضى في السجون ومات شهيدا من تمكن منه الاستعماريون واضروت البقية الباقية مستسلمة للحقد والكمر واستنزال اللعنة على كل شيء وعقبت الثورة سنوات عجفاء من الكبت والقهر والمطاردة كانت امتحانا عسيرا للمكر السوداني وبالرغم من كل دلك لا يستطيع اى انسان ان يلقى على الوثبة ى مسؤولية اذ انه من المستحيل ان نلوم محاربا لانه انهزم او بطلا لانه استشهد وعلى العكس من دلك تركت لنا الوثبة هدا العطاء الماثل الدى حاولت تجسيمه فيما سبق واهم من كل ما وضعنا ايدينا عليه من منجزات ثورة ١٩٢٤ هو كونها اول هبة وطنية تقوم بها طبقة المستقبل في البلاد فتهز القبضة الاستعمارية هزا عنيفا وتؤكد لنا ان احفاد الدراويش مايزالون محتفظين بتلك الجذوة المقدسة التي تنتفض في اللحظة الماسة فتصنع المعجزات ان ثورة ١٩٢٤ هى تعبير رائع عن روح شعبنا المناضل الصبور الذى يصبر ويصبر كالجواد الاصيل وفجأة يرفس في اصرار فيقذف الى الجحيم بكل القيود والسجون والحصون واذا استطاع درويشنا القديم ان يحرر امة كاملة بجيش من العصى واذا هبت جماهيرنا لتهزم بأحجار الشوارع حكومة دكتاتورية عسكرية فان ثورة ١٩٢٤ تقف جنبا الى جنب مع هذه الاحداث لانها في النهاية ثلة من الجنود يواجهون ليل الامبراطورية البريطانية بالثورة واللهيب

ان ثورة ١٩٢٤ هى بداية طريق الحرية في السودان الحديث ولكى نتفهم روعة هذا الطريق ينبغى ان نقف طويلا عند السنوات العجاف سنوات مابعد الثورة لنعرف الظروف الرهيبة التى كان المد الوطنى يعمل تحت وطأتها

السنوات العجاف ★

بعد فشل الثورة في ١٩٢٤ سيطر على البلاد جو من الحزن والكآبة الموغلة وبدأت فترة رهيبة في تاريخ الفكر السوداني - فترة من الارهاب والقسوة والمطاردة وبفظاظة حافية سيق الشباب الثائر الى المناق والسجون وعومل بوحشية سقط امامها البعض فريسة للاوبئة وامراض الصدر والجنون.. وطورد من نجا من السجن وحورب في رزقه وحريته حتى اضطر الى الصمت او مغادرة البلاد واستسلم المثقفون لحالة مفزعة من اليأس والذهول كفر بعضهم بالشعب وفعالية الكفاح وعكفوا على ذواتهم بالرثاء والتعزية موسعين كل شيء سبابا . واختار البعض الاخر ان يغمض عينيه عن الهول الماثل حتى لايرى ويتأذى وفي قلب هذا الرعب انتصبت ابراج المراقبة الاستعمارية تقرب هذا وتبعد ذاك وتدس هؤلاء وتوقع بأولئك وتنشر في صفوف المثقفين السودانيين اقذر التقاليد واشدها انحطاطا· تقاليد الفتنة والدس والسعاية والنفاق.

ولم يكتف الاستعماريون بذلك بل فرضوا على البلاد عقوبات تأديبية استهدفت المتعلمين في معظم الاحوال وحرمتهم حتى من ذلك البصيص الضئيل الذي خلق الوعي واشعل الثورة «وشن الانجليز على المتعلمين حربا عوانا لا هوادة فيها فاخذوا يحصون عليهم كل طرفه ويسجلون كل همسة ويأخذونهم بالشدة لدى اقل شبهة وشرعوا يفسدون مابينهم وبين آبائهم واخوانهم زعماء العشائر من نظار ومشايخ وعمد ملقين في روعهم ان الخريجين يريدون ان يسلبوا نفوذهم ويوقعوا بينهم وقبائلهم ليجردوهم من مكانائهم الموروثة ليقيموا مكان هذه حكومة من الافندية مقرها الخرطوم ولطالما تندر الانجليز بحكومة الافندية هذه مع المشايخ والعمد امعانا في خلق وزيادة الجفوة بينهما (١) وبهذا ضمن الانجليز بقاء ذلك التحالف والتعاون المستمر بينهم وبين الطبقة الاقوى في المجتمع وهي طبقة الزعماء العشائريين والطائفيين

★ بهذه التسمية المبتكرة ادين للاديب عبدالله علي ابراهيم اول من اطلقها
(١) ملامح لحسن نجيله ص ٢٧٧

وبنفس الوقت صمنوا عزل المثقفين عن تلك الطبقة وتوسيع شقة الخلاف بينها وبينهم

« كذلك قرر الانجليز حرمان البلاد من كل الوان التعليم »حرمانا امتد الى عشر سنوات فأغلقوا المدرسة الحربية حتى لا يتخرج ضابط جديد ثم اغلقوا مدرسة العرفاء التى تخرج مدرسى المدارس الاولية ابدا بالا تفتح مدرسة اولية بعدا كما قرروا الا يزداد عدد فصول المدارس الابتدائية القائمة فصلا وحدا ولايضاف تلميذ واحد فوق العدد المقرر (٢) ولم يسلم من مطاردتهم حتى الاندية الرياضية فقد اقفلوا نادى التهذيب الرياضى - اول ناد رياضى بالسودان بناء على اشاعة كاذبة بان اعضاء النادى يتدربون تدريبا عسكريا ليناهضوا الحكومة فيما بعد (٣) وبجانب كل هذا تم اغتيال جريدة السودان فى عام ١٩٢٥ حين قامت شركة ماكودكوديل الانجليزية بشراء مطابعها ومعداتها

« واذا كنا لا نزال نشهد مظاهر سطحية ومتباعدة للتوسع التعليمى فان لكل منها مبرراتها وظروفها القاهرة التى فرضت ها وجودها وصمته فمثلا يخبرنا الاستاذ حسن نجيله ان مدرسة كتشنر الطبية التى تم افتتاحها عقب الثورة مباشرة ما كانت لترى النور لولا ان التفكير فى انشائها بدأ قبل عام ١٩٢٤ وكانت معداتها قد اعدت قبل اندلاع الثورة واما البعثات التى بدأ الانجليز بايفادها الى بيروت لتلقى العلم فلم يكن الدافع ليها الرغبة فى تزويد السودانيين بالثقافة بقدر ما كان المقصود منها صرفهم عن الثقافة المصرية التى كانت تغلى بالثورة والرغبة فى التحرر والاستقلال ومع ذلك فان عدد المبعوثين الى بيروت لم يزد عن اربعة عشر شخصا خلال مدة عشر سنوات

لقد بدأت السنوات العجاف سنوات القحط والجدب والهزيمة التى انعدم خلالها كل تفكير سياسى وكل تحرك وطنى كما انعدم بالضرورة كل نوع من النشاط العلمى الرائد وعاد الفكر السودانى فكرا ادبيا مجردا مثلما كان قبل الوثبة وظل هذا الشبح المقبض يجوب البلاد حتى تجمع الوعى القومى مرة ثانية عند انعقاد مؤتمر الخريجين فى فبراير ١٩٣٨

(٢) ملامح لحسن نجيله ص ٢٩٠

(٣) الساطىء الصخرى ص ٨٣

٧ ان السنوات مابين ١٩٢٤ ـ ١٩٣٨ تمثل بالنسبة للفكر السوداني الحديث مرحلة الجنينية الثانية فبعد ان بدأ بالنشوء مع الوثبة اغتاله الاستعمار بقسوة بالغة وكان على جيل الرواد ان ينشأ ويستكمل وعيه تحت وطأة السنوات العجاف وان يحمل امانة الفكر ويعيد صياغته تحت ظلها الثقيل ومن هنا تصبح دراستنا للسنوات العجاف مفتاحا لفهم جيل الريادة وظروف الولادة الثانية للفكر السوداني

ولابد من كلمة عن هذه الولادة الثانية فقد رأينا في عضون حديثنا عن الوثبة كيف انها جاءت بذور الفكر السياسي ومايقتضيه من لمحات اقتصادية واجتماعية وتسمية وكيف انها يمكن اعتبارها حدا فاصلا بين الطابع الادبي الصرف الذي كان مسيطرا على الفكر السوداني وبين الطابع العلمي الشامل وقد انجبت الثورة روادا حقيقيين في كل تلك المجالات ولكن الهزيمة قضت على تلك البذور كما قضت على اولئك الرواد الاوائل . وحتى اذا سلمنا بان تأثير الوثبة عاود الظهور بعد مؤتمر الخريجين فاننا لا نستطيع المجادلة في ان الرجال الذين انجبتهم الثورة قضى عليهم قضاء مبرما وتم اغتيالهم فكريا بطرق غاية في الدناءة عن طريق السجن والتشريد والمطاردة فروى جيل الوثبة في اقصى ركن من المجتمع نادما حظه العاثر وطالعه النحس ومتشكيا من كل شيء ومتبرما بالكبت المفروض عليه كما يعبر الشاعر حسن عمر الازهري

لعب السكسون بي هل سلمت	كره يرمى بأقدام عتاه
شغلوني ميرة واحتكروا	كل مشروع سوى باب السعاه
امسكوا عن قلمي بل امسكو	لفظة تحرجر من بين الشفاه
امسكوا عن قلمي بل امسكو	لفظة تحرجر من بين الشفاه
فالتزمت الصمت حتى لم اقل	من كلامي غير اه ثم اه!

وفي هذا الجو الخانق يستسلم صالح عبدالقادر (احد رجال الصف الاول في الوثبة) الى هذا المصير القاتم حاقدا على الزمن الذي لا ينصف والناس الذين لايقدرون ومعبرا بقدرية متعصبة تؤمن بالحظ والفال والمصادفة

نفد الصبر وحظي اغمض العين وناما
لم يكن يعدل حتى علم الناس الكلاما
حالف الجهال لكن عن ذوي الفضل تعامى

ويضرب على نفس الوتر لمرة ثانية .

لا تلمنى فتكن متهمى   ان عقلى لم يكن متهما
ولم الدهر على مقصده   اخطأ للدهر وعمدا ظلما

ثم يخلص الى هذه الحكمة المريرة :

لا تفرح بنعمة ان الزمان له انقلاب
ان الزمان محكم سلوى الاساود والذئاب

ويتكرر نفس الموقف الساخط لدى حسيب على حسب

الف الهموم برغمه والغده   مغدا بواد والسرور بواد
لا تستقر ركابه فى بلدة   حتى ينادى بالرحيل منادى
لكاننى كرة ودهرى لاعب   يرمى به الحدثان يستبداد

وفى الطرف الاقصى للصورة يقبع حسن عشماوى بدرى مترعما جماعته من الشعراء اهجائيين منصرفين بطاقاتهم الشعرية الى (درج السفاسف) وغيره من صغائر الامور التى تكشف عن استخفاف اصيل ولا مبالاة كامنة بما يجرى فى المجتمع ولكن تحت هذا المظهر اللامبالى يختبىء الاحساس بالنحس وبالضياع ذلك الاحساس الذى يطل برأسه الفاضح فى اللحظة المناسبة متحد ايضا صورة الهجوم على الزمان والاقدار

كم علف الدهر مثلى فى مطالبه   فما انثنى لاقتران الكد بالفشل
وكم بليت بآلام اكتمها   وخلة اسمعتنى كل مبتذل

«حسن عشماوى بدرى»

وحتى الذين سلموا من لعنة الحقد على العالم والزمان لم يفعلوا اكثر من حزن على الثورة المجهضة والبحث عن العزاء وعند توفيق صالح جبريل يتخذ هذا الموقف مظهر الارتداد بعد ان كان فى شبابه شاعر الكفاح الذى تدوى اشعاره فى صحف القاهرة عاد مرة اخرى ليصبح شاعر الروح والتباق الملاح وفى اولى قصائده بعد الهزيمة يرثى شهداء الثورة مخاطبا اثنين من زملاء الكفاح فيتحسر على الضباط الشهداء الاربعة الذين اعدمهم الانجليز ويذكر اخاه سر الختم وعلى عبداللطيف زعيم اللواء الابيض ويعلن فى النهاية ان

العوادل جانبوا الصواب والعدل حين لاموه على صده الحسرة بالخمر

اعلمتما ما كان بعدكما وما	فعلت باهلينا يد السفاح
اودى باربعة صدور فى الوغى	يلويحهم القوا صدور رماح
فى حفرة من بعد ان اصلوهمو	نارا توقد فى النهار الضاحى
ومضوا بسر الحتم بعد صفيه	رب اللواء الابيض الوضاح
للسجن للتشريد لا لجريرة	ما الذنوب من اوصفهم بجناح
قلبى المعذب دائم خفقانه	ابدا يرف كعالق بجناح
لام العوادل عزلتى عن صحبتى	زهدا وصدى حسرتى بالراح

وهكذا تسللوا واحدا بعد الاخر ولم يتركوا فى الميدان سوى عدد قليل من الرجال الذين اختاروا الصمت بطريقة اخرى ـ الصمت الناطق فقد انصرف حمزه الملك طمبل وعرفات الى الادب وانهمك فيه بعد ان اغلقت منافذ السياسة فاصبحا علمين من اعلام التجديد والاحياء فى الادب واذا ظلا يتكلمان الى النهاية فانهما ظلا ايضا الى النهاية صامتين عن المواضيع المبتورة التى طرحتها الثورة ثم اصبح تناولها حراما ومع ذلك يظل من الممكن ان نربط بين هذا التجديد وبين الموقف السياسى القديم اذ ان الدعوة التى يتصدرها الاديبان هى دعوة الى ادب سودانى متميز الوجه وهذا الموقف القومى المتحرر من نعرة الوحدة (وحدة وادى النيل) هو رد الفعل الاكيد للهزيمة وما صحبها من سخط على المصريين الذين لم يتدخل جيشهم فى احداث الثورة العسكرية ليؤزر زملاء السلاح من الضباط السودانيين والذين انصرفوا عن السودان وراحوا يفاوضون الانجليز فى امر استقلالهم الخاص الامر الذى دفع بالشاعر حسن عمر الازهرى الى ان يصيح بهم محذرا

اذكروا السودان فى استقلالكم	قبل مصر فهو ينبوع الحياة
كل من قدم مصرا قبلنا	خانه ان تغتصب الماء يداه
مصر والسودان شىء واحد	كل قطر منهما يفدى اخاه
كل قطر منهما ان لم يزل	يجذب الثانى فقل يا ويلتاه

* وراء خيبة الامل هذه في الكفاح المشترك راحوا يؤكدون على نوع وحيد من الانفصال كان يبدو لهم ممكنا وقريبا المنال الانفصال الثقافي بمعنى خلق ادب سوداني مميز الملامح ليس من ادب العرب وادب الغرب فقط وانما عن الادب المصري الحديث ايضا ومهما تكن الدوافع الكامنة وراء تلك النزعة يومئذ فانها اثبتت في النهاية انها لا اكثر من الوضع الطبيعي والمفارقة الكبرى هي ان اشد دعاة هذا المذهب تشددا وحرصا في عصرنا الحاضر كان استاذا مصريا هو الدكتور النويهي الذي اثار معركة ادبية كبرى باتهاماته للادب السوداني بفقدان الروح القومي لقد وصل فلول الثوار الى الحقيقة بدوافع حاقدة ومشحونة بالخيبة والمرارة ولكنها تظل تحت مجهر البحث حقيقة لا يتطرق اليها الشك

واذا كان الجميع قد اختاروا الهروب والانزواء فان رجلا واحدا حمل عن الجيل خطاياه ومرارته المكتومة واتخذ موقفا متفردا ولا منتميا ليصدر الادانة على كل شيء انه الشاعر حسين منصور صاحب ديوان الشاطيء الصخري والذي بلغت عنده المرارة حدا يقارب اللوثة فتفجر بغضبه على كل شيء ومن الصعوبة ان نجد في السنوات العجاف رجلا واحدا او مؤسسة واحدة سلمت من هجائه المرير فتراه يهجو احمد عثمان القاضي ويوسف التني وسليمان كشه وسليمان منديل وعبدالله عبدالرحمن وعلى عبدالرحمن وشيخ المعهد العلمي وجماعة ابوللو والعقاد ورئيس النادي السوداني بمصر وكتيبة غردون ورجال السياسة في مصر وكافة الشعراء السودانيين رائدا الزمان ككل والانجليز على وجه التعميم ويذهب الشاعر في حقده وغضبه مذهبا بعيدا فيرمي جميع عدائه بالغباء والسفالة والتخنث وتصل حملاته ذروة الفحش حينما يهاجم من يسميهم المستعجمين ويعتبرهم أس البلاء والمشايخ الذين يرى منهم ميلا الى المستعمرين وتشبثا بهم

ايها المارقون لستم بشيء	او حديرين بمتعلص وشنئي
لا أرى فيكمو سوى ما املمى	من فتى حائر ومن شيخ سوء
ايها المارقون مهلا فقد افسدتم	للشعب من شباب ونشيء
ماعرفتم اعاجما ثم ام عربا	ررئتم والله اكبر رزء

وفي قصيدته (قسم عظيم) وضع تحديدا جيدا لاعدائه

الاخذين من العروبة ريهم	والقائلين له بطيب نفوس

والناطقين بلحنهم فكأنهم　　وكأنه عندى سبب تيوس

ثم يستطرد الى البذاءة

والاخرين دوى العمائم واللحى　　اللابسين ملابس الطاووس
يدعونها فرجية سنية　　لكنها للحبر والقسيس
أما العمائم فهى ضم كلها　　ولحاهم ليست على الناموس
متحرمين فان مشوا و هرولوا　　فعراشة طارت لنار مجوس
شقحا لهم لافرق بين اذانهم　　والله لو ضرب على نقوس

ويصل قمة الفحش في هجائه للمتعلمين وذلك في قصيدته (رثاء الوالدة) يدعو ذلك زفيرا وزئيرا :

وان الذى قد شئته لمنعد　　سأقذف انصار المساتر بالنحس
واقطف كالحجاج ارؤسا فتنة　　مـحـمـحة الحدين باتت على كرس
يسمونها كلية وحقيقة　　بها جمعت كل الضلالة والفلس
يبنى على ماء الرجل بنيانها　　ولن اكرموهم فالعداء من العدس
تظن بهم خيرا ويعجب هزرهم　　فلن زرتهم ملسو بادرعة ملس
ومدوا شفاها ادميت من ترشف　　وقالوا بلا خوف لضالتهم هيس
هم النفر الانجسى من عرس يودل　　واخوانه من ذلك الصنف والجنس

وقد تدخلت ثقافة الشاعر وميوله الشخصية لتوحي اليه ان سبب الازمة هو الثقافة الاستعمارية التى تشبع بها السودانيون فكرس جهده لحرب تلك الثقافة وعندما يشتم العقاد ليس لسبب سوى انه يعتمد الثقافة الاوربية التى يمقتها شد المقت فيقول عنه «ذلك الدعى المريض النفس الذى يأتى عقله كل اسبوع من اوربا مع البريد الاوربي» ونزعاته الفروسية تحيل اليه ان الخلاص لا يكون الا بنبذ معطيات الحضارة الغربية

وقد ساعدت الشاعر ظروفه الغريبة ليتحدث بهذه الصراحة فقد كان لا منتمي حقيقي وحياته موزعة بين مصر والسودان وكان في مايبدو متهما في عقله فاستطاع عن سبيل هذه المفارقات ان يجد طريقه الى نشر ديوانه ولكن الاجيال التى هجاها لم تغفر له مطلقا فكما تامروا عليه حيا تامروا عليه ميتا وعملوا على اخفائه وابعاده عن الضوء ولا يكاد يجرى له ذكر على لسان احد سوى التجانى

يوسف بشير الدي كان صديقا وشبه تلميذ له ودلك في قصيده له في ديوانه اشراقه كي يبدو انه كتب ترجمته القصيرة في نفثات اليراع (وهناك رأى يقول بان كل لاراء الادبية التي تضمنها الكتاب المذكور من انتاج التحاني وهو امر محتمل).

واذا كانت السنوات العجاف قد شهدت تشتت جيل لوثبة تحت وطأة هزيمة فانها قد شهدت ايضا بروز جيل جديد يتضرم بالفتوة والحيوية وشهدت لذلك الجيل اخصب سنوات شبابه بكل عنفها المكبوت وتطلعها الدي شاء له الاستعمار ان يدوى ويموت ولكنه انفجر في النهاية ورغما عن كل تدبير مضاد. هذا الجيل هو جيل الرواد جيل قدر عليه ان يتفتح وعيه على الحياة بصدمة الهزيمة في عام ١٩٢٤ وان يحيا السنوات المقبضة التي تلتها تحت ظل الارهاب والمطاردة من قبل السلطة المعتدية وان ينمو تمام وعيه ونضوجه في جو غائم فكريا وقاتم اجتماعيا ودامس سياسيا واذا كنا نسميهم رواد فذلك (ضمن اسباب اخرى) لانهم لم يتسلموا الراية من احد بل كان عليهم ان يصنعوا رايتهم الخاصة ويقطعوا بها الشوط عدوا ولهذا كان حتما ان يتخبطوا في البداية وان يجربوا كل انواع المصالحة قبل ان يكتشفوا في النهاية ان لا سبيل سوى قتال السلطة السياسية الاجنبية وتحرير دواتهم وبلادهم من طلها الخانق وقيدها الثقيل.

كان الطريق امامهم مظلما موحشا لا يدعو الى السير بقدر ما يدعو لى التحسس والاستكشاف وكان درس الوثبة مايزال ماثلا امام اعينهم بنتائجه المريرة متجسدا في جسم الثورة المضعضع وجسد الامة المثخن بالجراح وتحت هده الظروف كان لابد من الحذر والتثبت والتجد الاهبة الكاملة قبل الانطلاق.

واتخذ هذا الحذر صورة حصيفة من صور الالحاح على التعميم والسعي الى التوسع فيه حتى تزداد القاعدة الثورية المكونة اساسا من الطلائع المثقفة وبهذا المهم راحوا يبذلون اقصى الجهد في الحض على التعليم والاقبال عليه وتهيئة وسائله للاخرين بفتح المدارس الاهلية وانشاء الصحف والاندية الثقافية واقامة المحاضرات والندوات ومن هنا تمتص كتابات الرواد بالترغيب في العلم والاشادة بدوره في تطوير المجتمعات فالتجاني يرى ان

كل ملقى الورى غدا العلم   لابكير شعثا ولا يمحد فطرا

ويشيعه في الرأي محمود حمدي بطريقة وعطية

سبى وصفى ذى العلم جاه وثروة كما الجهل فيه ذلة المرء والفقر

كما نجد لديهم احتفاء لا مثيل له بكل ماهو جيد او جديد في عالم الفكر السوداني فالتجاني يكتب قصيدة رائعة تكريمي للمؤرخ محمد عبدالرحيم وحري لمؤلف رواية (عائشة بين صديقين) ويتحمس المحجوب لكل ماهو سوداني في عالم الثقافة ثراء يتحدث في رثائه لمعاوية محمد نور بزهو وافتخار ومع ان معاوية قد بز المثقفين في مصر ولبنان حين زارهم الا ان ذلك الافتتان لم يكن واسع النطاق وساووا لما يستحقه معوية بعقله المتقد وذكائه الخارق ولكن هذا يكفي ليجعل المحجوب يتيه زهوا وفخرا فها هو احد السودانيين يرقى مرقى عظيما ويستحوذ على اعجاب الناس خارج القطر

زرت مصر فكنت نجم سعود ولبنان حزت أعلى المراقي
شهد الازر من نبوغك نورا وكست الصحاف اثر السباق
ونزلت في الكنانة غيثا مستهل الارعاد والابراق
ضرب الناس للنبوغ وراحوا يرقبون الهلال قبل المحاق
ينمحون من سناك ضياء كضياء الصباح بعد انفلاق

كذلك اذا انعقد المهرجان الادبي في ودمدني وبصورته الموضعة التي نعرفها فان لمرحة لعامرة تخرج المحجوب عن طوره حتى يرى في المهرجان حدثا فريدا حددت به اللغة شبابها وشهدت احلى عصورها وازهاها

شهدت به الفصحى جميل عهودها
وعكاظ ازهر والزمان محيل

وبنفس الوقت يقترن طلب العلم لديهم باجمل مظاهر الحفاوة فالمجتمع المثقف بكامله يحتفل بتخريج الاطباء وبسفر البعثة الى بيروت وبعودتها منها كما يقيم الدنيا ويقعدها بحفلات التأبين والرثاء لاي متعلم يدركه الاجل

وبجانب هذا كله اقيمت عدة مدارس اهلية جمعت لها التبرعات بالحفلات الشعرية وبتقديم الروايات وباستنفار همم الرجال كما شهدت السنوات العجاف نهضة صحفية واسعة فظهرت مجلات النهضة والفجر والملتقى ولا نبالغ اذا قلنا ان السودان لم يظفر من بعد بمجلة واحدة تصارع الفجر مثلا في

الجودة والجدية

وما دام الرواد هم مقدمو الفكرة فلا عجب ان يتأثروا بها ويعملوا على تطبيقها بانفسهم فقبلوا على المعرفة والاطلاع بحماس لايعرف الفتور ويثابروا فى التحصيل و لاستيعاب ويخبرنا ـ التاريخ انهم بلغ بهم الولع بالقراءة انهم كانوا يقيمون حلقات للقراءة فى الاحياء يقرأون فيها كل جديد ويتدارسونه فيما بينهم ليطمئنوا الى استيعابه ونقده مدفوعين الى ذلك بالرغبة فى المعرفة وبالنزعة الوطنية التى ترى فى ازدياد المعرفة طريق البلاد الى الحرية

ولنستمع الى الاستاذ حسن نجيله (احد ابناء جيل الريادة) وهو يشرح لنا دوافع جيله قائلا « هذا الاضطهاد وهذه الحرب المستمرة ضد المتعلمين جعلتنا نحرص على الاستزادة من المعرفة وكأننا بهذا فوق مانفيد من سعينا للمعرفة نكيد للمستعمرين ونرى فى هذه الجهود الشخصية التى نبذلها فى الدراسة والتحصيل نوعا من الحرب عليهم (١) وبفضل هذه الحمى الجائحة انعدم كل نوع من التخصص واصبحت ثقافة الجيل موسوعية (٢) الى ابعد حد فالمحجوب (٣) مثلا شاعر وناقد وحقوقي ومهندس ويوسف التنى (٤) شاعر وضابط ومهندس وصحفى وعبدالحليم محمد (٥) أديب وطبيب احصائى وكذلك الحال مع محمود حمدى (٦) وبدوى عبدالقادر (٧) . وهذا الوضع يبدو طبيعيا ومعقولا تحت ظروف الفترة واكثر من ذلك كانت تقتضيه ظروف الريادة فى بلاد تحتاج الى الرواد فى كل المجالات بحيث يتحول الرائد الى جاك

(١) من مقالة له بعنوان (التجانى كما عرفته) فى الكتيب الموسوم در ست فى شعر التجانى

(٢) وما من شك فى ان الشباب السودانى وجد نفسه فى حاجة ملحة الى دراسة المعلومات العامة وخاصة مايسمونه علم الموسوعات
الحركة الفكرية فى السودان للمحجوب ص ـ ٢١

(٣) مسرح مؤلفه من تجارب قلب (ديوان شعر) الى (الحركة الفكرية وما يجب ان تتجه اليه) الى (الحكومة المحلية)

(٤) صاحب ديوان (الصدى الاول) والسرائر

(٥) شترك مع المحجوب فى تأليف (موت دنيا) وهو مجموعات ذكريات وانطباعات

(٦) صاحب ديوان (الشباب الاول)

(٧) مؤلف رواية (هائم على الارض)

نكل لصنائع كبعيعر امثل الانجليزى ويتجلى قلق الجيل الرائد وحيرته فى معاوية محمد نور وحياته القصيرة العنيفة فقد بدأ دراسة الطب فى السودان ثم يهجره ويذهب الى بيروت ليدرس الادب الانجليزى ويعود الى السودان فيعمل صحفيا متطوعا ثم يعود الى القاهرة ليشتغل بالصحافة ويعود للسودان ليعمل سكرتيرا لمعرفة التجارية وهكذا تتوزع امامه من مختلف المهن ومختلف البلاد وينعكس كل هذا على اثاره فهو يكتب بالانجليزيه والعربية ويكتب فى الادب والسياسة والنقد وعن طريق هذا التوزع الشديد فى انجازاته تضيع تجاربه جميعا فى الزحام

ان معاوية لا اكثر من نموذج لضحايا السنوات العجاف فهناك عشرات وعشرات ضاعوا تماما فى غمرة الركود الثانى لذى جثم على مجتمع السودان ولم يبق لنا منهم سوى بضع اخبار واثار ونكن فى الجانب الاخر من الصورة نلتقى بالاخرين الذين استفادوا من ظروف الركود فبعد القضاء على فلول الثوار وتشتتهم فى بقاع الارض وظلمات السجون والمنافى كان وضع جديد يطل برأسه على البلاد . وضع يمسك بامكانه النامية التى هيأها التعليم للمتعلمين لدى الحكومة فقد انفتحت ابواب معهد العالى فى نهاية السنوات العجاف وانفتحت معه فرص العمل ولم تكن امام اولئك المتعلمين واثر انسحاب الموظفين المصريين اصبح بمقدور السودانى المتعلم ان يطمح الى وظائف ودرجات لم يكن يحلم بها من قبل وشهدت السنوات العجاف صعود نجم الموظفين وتسلمهم المراكز التى كان يملؤها فلا جيل المهزومين والمشردين من ابناء الوثبة وعن طريق الدرجات الجامعية ودراسات المراسلة ولد جيش من القضاة والاطباء والمهندسين والمدرسين ويبدو ان الاستعمار الانجليزى اطمأن بعض الشيء الى الركود السياسى لدى عم البلاد والى التقاليد القدرة التى بثها فى صفوف المعلمين فلم تعد يضع لهم حسابا وعلى العكس من ذلك بدأ يفتح امامهم سبل الدراسة والترقى

وهكذا برزت الى الوجود ارستقراطية جديدة قوامها الموظفين ولكنها ارستقراطية مغلوبة على امرها ومشروطة برضاء السادة الانجليز ومشروطة ايضا بظروف المجتمع المتخلف المقهور ومن هذه الارستقراطية الجديدة

ومن الصياع الكامل الذى عاشه فقراء الجيل يتكون رافد كبير يكمن خلف مجهود ت الرواد ويصبغ فكرهم بطابعه المميز   وعن طريق دراستنا للرواد يمكننا ان نتفهم ونقدر اثر السنوات العجاف على الفكر السودانى الذى يمثل الرواد بالنسبة له عصر الاحياء وبنفس الوقت عصر الابداع .

الرواد

ظل الفكر السودانى حتى مجىء هذا الجيل حبيس الاطر الدينية واللغوية وبعيدا عن اى تأثر صميم بالحضارة الغربية التى غزت الشرق وظل عاكفا على فنون المعارف التقليدية المتوارثة عن العرب لايضيف اليها ولايجدد فيها بقدر ما كان يجترها ويستعيدها وبالتالى يسهم فى مسخها وطمس معالمها الثورية ونتيجة لكل ذلك بقى الفكر السودانى محافظا على طابعه الادبى فى التفكير ولم يكتسب النزعة العلمية التى كانت طابع الفكر الاوروبى الجديد وظلت ادواته التعبيرية نفسها لا تتجاوز القصيدة والمقالة الانشائية والخطبة المنبرية ومع ان الوثبة فى ١٩٢٤ اتت معها ببواكير التفكير العلمى الا انها قضى عليها عقب الهزيمة قضاء تاما وكان على الجيل القادم ان يبدأ من البداية

وهنا تدخل عامل هام فقد تلقى الجيل التالى دراسة منهجية منتظمة بعكس الدراسة المستعجلة التى تلقاها الجيل السابق وعن طريق هذه المنهجية وذلك الانتظام اتيح للجيل الجديد ان يتعرف الى الحضارة الغربية تعرفا وثيقا وينهل من مناهلها الاصيلة فيتحسس الفرق بينها وبين ما بيديه من فكر ويتمكن من المقارنة والمفاضلة والاختيار فينتهى الى وعى حديد بما ينقص بلاده من مقومات الحضارة والمدنية ويبدأ سعيه الحثيث لايجاد تلك العناصر الناقصة . ومن الناحية الاخرى كان هذا الاستيعاب المتأنى لحضارة الغرب قد تم فى بلاد الشرق العربى وخاصة مصر والشام وبدأت نتائجه تظهر على اقلام الكاتبين من المصريين والسوريين واللبنانيين وبدأ متعلمو السودان يتلقفون مايخطه اولئك الرواد فى مصر والشام بشغف واعجاب ويتلقون عنهم ماعجزوا عن تلقيه مباشرة عن الاصول فيكتسبون وعيا مزدوجا يجمع بين مايجىء فى الاصول الاوربية وما يصيبه الرواد العرب من نقد او تشذيب

ومن هذين المنبعين يأتى عصر الريادة بالنسبة لهذا الجيل فهم رواد لانهم اول من استكشف تخوم الفكر الاوربى وقام بنقله واستيعابه وهم رواد لانهم تسلحوا بذلك الفكر واستفادوا منه فى اغناء الثقافة السودانية بعناصر كانت مجهولة لديها فظهر العلماء فى مجالات الطب والهندسة والمتخصصون فى الاقتصاد والاجتماع والتربية وادخلت على الادب فنون حديدة كالقصة

والمسرحية وافكار جديدة كالتملسف والرومانسية ولكن الانجاز الاهم لهذا الجيل يبدو في المجال الادبي ففي هذه النقطة كان الجيل كله يلتقي وكان من النادر ان تجد بينهم من لا يكتب الشعر او بديج المقالات او على الاقل من لا يقرأها ويسمعها بتذوق وامعان. وكان الادب الهواية الاولى للجيل والتقليد السائد فيه.

ووراء هذه الظاهرة يكمن اكثر من سبب فقد كانت السنوات العجاف تبسط ظلها البغيض على السودان وكان على المتعلمين ان يختاروا الدروب وان يصرفوا طاقاتهم الشابة المتفجرة الى مصرف يشعرهم بالانجاز والتحقيق فاختاروا الادب والفن سبيلا الى هذه الغاية وكانوا حتى في ذلك مرغمين اذ ان الفكر السائد في العصر انئذ كان يفتح هذا الباب على مصراعيه بينما يوصد بقية الابواب.

لم يكن الفكر الشرقي عامة ينحاز الى صف العلوم والتكنولوجيا لان هذه الفنون كانت في بداية تسربها الى الشرق ولعله لم يكتمل تعبيد طريقها اليه حتى الان.

ولم يكن الفكر الشرقي انئذ في صف الانجازات السياسية فقد كانت السياسة وليدا ملعونا ومطاردا وكان الاستعمار ينكر بضراوة وقسوة اى محاولة في ذلك السبيل

لم يكن الفكر الشرقي انئذ قد وعى قيمة الفنون التشكيلية والفنون الدرامية حتى يدعو الناس اليها فضلا عن ان الامكانات المادية في الشرق لم تكن في ذلك الوقت لتسمح بذلك النوع من الترف.

وهكذا لم يكن مفتوحا امامهم سوى طريق الادب (وبخاصة الشعر) الذي ظل مزدهرا وسيدا طوال العصور

ونحن نعرف في هذا العصر ان الادب والشعر خاصة فن لايعرف الانغلاق على ذاته وان الحياة هي مادته الدائمة ولهذا يتبادر الى اذهاننا ان الانصراف الى الشعر قد يعني بطريقة اخرى الانصراف الى السياسة - يثبتنا على هذا الزعم مانعرف عن ادباء كثيرين كان ادبهم سياسة صرفا وبالتالي نتوقع من الرواد ان يتخذوا الشعر وسيلة للسياسة ومعبرا الى العمل الكفاحي ضد الاستعمار ولكن هذا الظن وهم واهم فقد كانت السياسة لا وجود لها وبالتالي لا سبيل الى التعبير عنها تعبيرا ادبيا وكان العمل الكفاحي معطلا وان شئت فقل فرديا وبالتالي لا سبيل الى صياغته فنا كانت كل الظروف تفرض عليهم ان

يتخذوا الشعر والادب ذريعة للهروب من احداث الحياة وفراغها ودمامتها

ومن الناحية الاخرى كان الفكر العربي قد عرف الرومانتيكية اما مترجمة كما هو الحال مع ترجمات القصص والشعر الفرنسي وامام مبدعة بايدي الادباء العرب كما هو في اثار جبران وابي ماضي وسائر المهجريين وفي اشعار المهندس وسائر ادباء مدرسة ابوللو وكان جيل الريادة قد اتصل بالفعل بهذه الاثار قرأها واعجب بها وتأثرها واجدا فيها خلاصه ومخرجه من ازمته المحلية

لقد كان الشاعر الكلاسيكي القديم في عصور مشابهة للعصر الذي نتحدث عنه يهرب الى الشعر ايضا ولكن الشعر لم يكن يغنيه شيئا فتحت التبجح والافتخار المريض بذلك الشعر نلمح في اغوارهم ملامح الحسرة والاسى وكثيرا ما يجابهوننا بهذه الحقيقة شاكين من عهد لايقدر الشاعر ولاينصف الاديب - نجد هذا لدى العباسي ونجده لدى البنا ونجده لدى سائر شعراء الجيل الحفيد الذين يلخصهم العباسي في قوله متشكيا :

فقدت ثراء المال وازور حاسدي ولم يبق لي إلا التوجع والشعر

وبذلك يصبح الخلاص ناقصا والمهرب غير مريح

اما بالنسبة للشاعر الرومانسي فالشعر نعمة كاملة وخلاص غير منقوص وملاذ اذا هربت اليه فقد عشيت اذناك عن التقاط اصوات العالم الذي يضج من حولك وعميت عيناك عن رؤية الواقع الذي يحيط بك اذ ان الرومانسية تبدأ بتمجيد الشعر في ذاته كنشاط متسامي وارفع من هموم الارض ومتاعبها ثم تمتد بعد ذلك اي تمجيد العزلة كوسيلة الى التفرغ لعبادة الجمال وفي النهاية يجد الشاعر الرومانسي نفسه وقد شاد عالمه الخاص والذي يحوى عادة المرأة الجميلة والطبيعة الفاتنة وحقيبة من الشعر والهموم السامية .

وقد اضافت هذه الدعوة الرومانسية على الشعر قيمة اضافية واصبح اغراء دائما للرواد ومع ان الجيل كله يشترك في هذا الانصراف الى الادب كمهرب وملاذ الا ان دوافعهم تختلف وتتباين . ولكي نتبين الفرق لاينبغي ان نسأل الى اين هربوا وانما مم يهربون؟ فقد كان لكل منهم قضيته الخاصة وطوفانه الخاص الذي يضطره الى البحث عن جبل يعصمه من الماء وبالطبع لايمكننا الحديث عن تلك القضايا الخاصة ونحن نتكلم عن الجيل عموما فان المجال الطبيعي لذلك هو الحديث عن افراد الجيل واحدا واحدا . ولكننا نستطيع ان ننظر في

تلك الدوافع المشتركة بين الافراد لنعرف منها ما كان يدفع الجيل الى الهروب

اسلفنا ان هذا الجيل انقسم تحت وطأة الظروف طائفتين (١) طائفة تلقت اعلى انواع التعليم المعروفة في البلاد وتسنمت وظائف لها خطرها ومكانتها في المجتمع ووجدت المجال امامها مفتوحا للترقي والتقدم فنشأ منها ارستقراطية مثقفة يتسم افرادها بالنزعة الفردية المتمكنة وبالطموح السياسي وطائفة اغلقت في وجهها ابواب التعليم العالي فلم تظفر من الوظائف الا باضأها شأنا واقلها حظا وفي بعض الاحيان لم تظفر حتى بتلك الوظائف الضئيلة الشأن فكتب عليها ان تشقى وان تضيع وان تمتلىء نفوس افرادها بالغضب والثورة على كل شيء، ولكن كل طائفة من هذين كانت تبحث عن مهرب من الامها الخاصة وعن ملاذ تتناسى فيه الهموم وتصبغها بصبغة الوهم الواهم حتى تغدو شيئا مختلفا

كانت الارستقراطية المثقفة تحس التناقض المرعب بين ماينبغي ان تكون عليه الحياة وبين ماهي عليه - بين ماجاءت به الكتب من مثل عليا في الحياة وبين ماهو ماثل في الواقع السوداني من تخلف واحداث فينتهي الى الحسرة العميقة عن الشباب الذى يذوي بلا عمل ولا ممارسة وبلا استنزاف لطاقات الخلق والابداع وامكانات الفعل والوجود (١) ولكي يتناسوا هذا لجأوا الى الادب ليشيدوا بمادته المرهفة عالما سحريا رائعا يعمر بالحب والغرام وتخطر فيه

الفاتنات المعبودات وصلا وهجرا ومنعا وعطاء وصدا وتقريبا فعمرت اثارهم بقصائد الحب وحالاته وكرسوا انفسهم لذلك تمام التكريس فلولا اربع قصائد قيلت في مناسبات عامة لكان ديوان (الشباب الاول) لمحمود حمدي من اوله الى اخره وقفا على الحب وشؤونه وينجو ديوان المحجوب بخمسة قصائد في السياسة وثمان في الرثاء كما ينجو ديوان التني بعدد مماثل ولم يقف الامر عند حد الشعر بل تعداه الى القصة فظهرت منذ وقت مبكر اقاصيص الحب والهوى على صفحات مجلة (النهضة) وكان ممكنا ان تقوى وتزدهر لولا ان تصدى لها المرحوم عرفات محمد عبدالله في مجلة الفجر فاوضح انها تدليس على الواقع السوداني حيث ينفصل الجنسان وتنعدم امكانية كل لقاء ومطارحة وملاطفة ودعا الى الاقصوصة الاجتماعية التي تصور مشاكل الناس ونفسياتهم فوجدت دعوته استجابة حاسمة

(١) في اوائل عام ١٩٢١ القى ادوارد عطيه (احد موظفي حكومة السودان السوريين) محاضرة بعنوان من الحياة تحدث فيها عن الحياة الغربية وما تعمر به من الجمال والفنون والحرية والانطلاق وكان الشاعر السوداني محمود حمدي من شهود المحاضرة فاثارت فيه كامن الشجن وسطره بهذا الشعر الذي يضع اصبعنا على موضع الجرح تماما

يا بني الدار التي لم تروها انكم لم تبلغوا الفن مداه
انظروا هلا نظرتم ساعة كيف يلهي الغرب بالفن هواه
ملأوا بالمدهش المغرى الثرى وسموا فانتزعوا للطير سماه
زرعوا الحسن فاني يلتفت لحد تقطف من الحسن جناه
لو تتطلع الى الدار تجد جدد صحرى وهم فيها حلاه
تجد التنسيق فيها ماحيا ... كثير فيه ان تصو الحياة
واذ انصت سكرت الهوى من بلل عرفت او من شفاه
وعن الاطفال حدث عجبا زنده تبعث في القلب صفاه
صور تكشف عن معانيها للحياة الفن والفن الحياة

* * * * * *

انه يا ادورد قد حدثتنا خبرا يبعث في الشيخ صباه
نحن لم نحفل بما في ارضنا من جمال او سمات مرهفه
الطبيعيات لم ذكرت قبل كفر لحس يرضاه الاله
والجمال الحق لو قدرته تسمع الراميك جهرا بالسفاه
واذ زينت نهم فيثاره لم تجد من نغمهم نغمة تسباه
هو انس ور لم نلقه بشبه الاسلال الا في حصاه

وبالرغم من ان كثرة من دارسي الادب السوداني يصفون اتجاهات هده الطائفة بانها اتجاهات رومانسية الا انني لا اميل الى الموافقة على هدا الوصف لان الرومانسية ليست في مجرد الحديث عن الحب وصروفه والطبيعة وحسنها وانما هي شيء اعمق من دلك هي ثورة اجتماعية وفكرية لها اساسها الفكري الخاص وتصورها الخاص للوجود فما كل من اشتكى الحب احد روادها ولا كل من تغزل بمنظر طبيعي احد انصارها

ويمكننا ان نقبل الحديث عن «مسحة» رومانسية تتفاوت في القدر من شاعر الى اخر من شعراء هذا الاتجاه فهي مفقودة تماما عند محمود حمدي وهي ضئيلة جدا لدى الثني ولكنها تتوافر الى مدى معقول في شعر المحجوب ويبدو ان هنالك علاقة وطيدة بين الوضع الاجتماعي للاديب وبين الثورة في شعره فادباء هذه الطائفة كما رأينا كانوا يمثلون بالنسبة للمجتمع السوداني رجال الياقة البيضاء والوظائف المتخصصة ومن هنا لم تكن ثورتهم عارمة ولا قوية . وبعكسهم يبدو ادباء الطائفة الاخرى اعنف ثورة واشد رومانسية (هذا اذا سلمنا بان الرومانسية نفسها تحرك ثوري - كما يشهد بذلك تاريخها)

ولكن المفارقة تأتي من ظروف المجتمع السوداني خلال السنوات العجاف فلم تكن الرومانسية سلاحا هجوميا كما كانت في ايدي روسو وهوجو في فرنسا وانما كانت انسحابا وهروبا ودعوة انعزال ونتيجة لذلك كان الرومانسيون الحقيقيون اشد الناس خمولا وبعدا عن مسرح الثورة الاجتماعيةوالسياسية التي بدأت بعد قيام مؤتمر الخريجين وكان رجال الياقة البيضاء في مقدمة الصفوف - ليس لان هؤلاء اشد من اولئك وطنية وحماسا وانما لان هؤلاء توفر لهم اولا دافع الطموح في حين سقط الاخرون في غيابة اليأس ولان هؤلاء احتفظوا بالمسافة بينهم وبين الواقع على حين انسحب الاخرون الى اقصى بعد ممكن عن الواقع وقست عليهم ظروف الحياة قسوة مرعبة فمات التجاني يوسف بشير وهو في مقتبل العمر دون الثلاثين واختفى ابراهيم عبدالقادر في وقت مبكر وتشرد عبدالله عشري وانشغل الاخرون بشؤون العيش عن كل شيء

وحين كان التجاني يسبح في تهويماته الصوفيةكان مثقفو الاتجاه الاخر يخوضون اعنف معاركهم مع الجيل الوالد على الصعيد الاجتماعي ويستلمون منه بحد السلاح كل سلطته الاجتماعية القديمة فحاربوا خرافاته وتقاليده وحطموا وقوفه الارعن امام الجديد ووصموه بالرجعية والتقليد ونسبوا اليه كل تأخر وشر تعانيه البلاد:

ما دام في الشرق للتقليد قائمة   فمجد العرب لن يطوى له علم

(الشباب الاول ص ٧٦)

وبالطبع ، يصمت الجيل الاخر امام هذه الاتهامات فاشهر على الرواد حربا عاتية قوية ووصمهم بالخروج على الدين وبالانقياد الى الغربيين والانبهار بحضارتهم ونسب اليهم ضعف الشعور الوطني والقومي وقد كان هذه الحروب العنيفة اثرها على الرواد فيها بعد فاصبحوا ميالين الى الحديد في المجال الاجتماعي والمحب الفني ومن الشواهد المعبرة ذاك الموقف الذي اتخذوه من الشعر الحديث ابان ظهوره ففي حين سارع الجيل السابق والجيل اللاحق الى ادانته كان الرواد يمارسونه ملقين بدلوهم مع الدلاء وفي حين كان الجميع يدينون الشاعر الحديد ويكفرونه كان التني والمحجوب يجربان الشكل الشعري الحديد بلا تأفف وبلا ازدراء

وينبغي ان لايفوتنا في هذه المعركة ملاحظة امرين اولها هو عدم اشتراك الشعر في المعركة بصورة واسعة فقد اكتفى الرواد بالمقالة كسلاح يشهرونه في وجه الجبهة المناوئة محتفظين بالشعر للتهويمات والغناء الفردي الأليم والشيء الثاني هو ان المعركة اقتصرت على مظاهر سطحية للتخلف وصمتت عن اشياء اساسية كانفصال الجنسين في المجتمع السوداني وحق المرأة في العمل والسفور وهي امور شديدة الارتباط بحياتهم الخاصة المليئة بالتطلع الى الحب والحياة المفتوحة النظيفة وقد يحق لنا ان نتوقع منهم ثورة على تقاليد المجتمع الانفصالي وضيقا بها واعلانا للسخط عليها ولكنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك واختاروا الصمت عن كل تلك المسائل (١)

(١) هنالك شوارده متناثره يمكننا ان نحددها على سبيل الحصر في قصيدة لو كنت للمحجوب وفي هي كامنة

لو كنت زهر في الرياض غيدة	وخطفت منه بعطري وشقائقي
لو كنت نجم في السما بحذية	مثلا يخفق لو عيني وشقائه
لكن شخصك في الخدور محجب	اصبو لرؤيته ولست اراه

في هذه الابيات للتني

اني ملك لا تسعين للصبا كما اسعى
اصغيت الى واش فأصغيت الى افعى
لان تكن التقاليد تحصى الحرج والفرعا

وفي ابيات محمود حمدي الوارد بعد وما عدا هذه الاعلانات المحمومة تم طرح المسألة للنقاش رغم لان الشعراء لم يكونوا يرغبون في تحطيم الوهم الجميل الذي نسدوه وحشدوه بالقصائد و ملهمات لان الاعتراف بدوافع الانفصالي يعني ان كل عرائسهم المثالية تم ترك كثير من احلام شعره .

والذى حدث هو ان تلك التقاليد كانت من القوة والرسوخ بحيث احجموا عن مهاجمتها وابداء الضيق بها ومثلهم مثل بقية الناس شرعوا فى تسور حيشان الانفصال تحت ستار الدجى ليطعنوا تلك التقاليد من الخلف سرا وفى هدوء او يكتفوا باختطاف النظرة العجلى فى طريق او حفل عرس او بالهروب الى الجنة الاوروبية الموعودة حيث يحقق المجتمع قدرا اوفى من الحرية للجنسين

طال هذا البعاد بقلبى حتى	لا أرى لاجتماعنا من مرام
واذا كان كل حظك منه	وقفة بالديار فى كل عام
وحديث على المسرة حينا	او خيال يجىء فى الاحلام
أو تلاف كأنه البرق عمرا	بين سيارة وبين ترام
أو سلام على الطريق اذا ما	اسعف الحظ مرة بسلام
ان يكن ذاك كل حظك منه	فسلام عليك الف سلام

المحجوب

وهكذا تركوا الميل وطعنوا ظله فانصرفوا بكليتهم الى محاربة العادات الضارة المتعلقة مثل لبس الرحط والكنفوس والقرقاب وعادة الختان والتشليخ والمشاط بالنسبة للبنات والعصبية القبلية وقام علماؤهم بتصفية الدين مما دخله من شوائب الدجل والخرافة وكل ذلك سعى مشكور الا ان المشكلة الاجتماعية بقيت متروكة للاجيال اللاحقة

هذه الثورة الاجتماعية المحدودة المدى لم تكن شيئا دخيلا عن برنامج الرواد الثقافى فقد كانوا يدعون فى المجال الادبى الى ادب قومى يعنى بشؤون البلاد ويعبر عن روحها الاصيل ويضع المحجوب مخططا وافيا لهذا الادب فى كتيبه (الحركة الفكرية فى السودان وماينبغى ان تكون عليه) فيرى ان تكون الموضوعات المحلية مادة الادب السودانى بحيث يعبر الادب عن طبيعة السودان ومشاكله وتطلعاته بحيث يكون صدى دقيقا لمايجرى فى المجتمع ثم لايكتفى بتحديد الموضوع وانما ينتقل الى تحديد الاسلوب (اما الاسلوب فيجب ان يكون بلغتنا العربية الفصحى يعتوره الاونة بعد الاخرى بعض مصطلحات بلادنا المحلية لان تلك الاصطلاحات هى التى فى الغالب تميز ادب امة من غيرها فليس عجيبا ان تسمع فى خطابات الزعيم الراحل سعد زغلول باشا «دى حبطتين فى الراس توجع» وغيرها من الامثال والنكات المصرية لانه مصرى قبل ان يكون عربيا يمت الى جامعة الشرق العربية وليس عجيبا ان

نسمع في السودان بعض الادباء يدخلون في كتاباتهم «الحسنة معطت شارب الاسد» او «العجلة من الشيطان» و «من الابري وكمي» وغيرها من الامثال المسموعة) وهو يرى ان هذا اسلوبا وبالموضوعات المحلية مادة يقوم الادب القومي المنشودثم يسطردليوضح ان هذاالادب ليس مقصودالداته او لمجرد الامتاع الفني وانما يراد به ان يسهم في تحرير البلاد (نتقلب هذه الحركة الادبية الى حركة سياسية تؤدي الى استقلال البلاد سياسيا واجتماعيا وفكريا ـ ص ٣٧) فهولايدعى ان النهضة الادبية المجردة تلد النهضة السياسية والاستقلال ولايدعو الى ادب مجرد له تأثيره السحرى على الجماهير وانما يدعو الى ادب خاص اذا تحقق وجوده فسوف يوجه الجماهير الى الانبعاث سياسيا وهذا الادب الخاص هو كما رأينا ادب سوداني الوجه والروح وطني التوجه والنزعة

بسط المحجوب كل هذه الاراء في كتابه «الحركة الفكرية في السودان» الذى طبع في اواخر ١٩٤٠ ـ أي بعد انزياح شبح السنوات العجاف وقيام مؤتمر الخريجين وارتفاع الضغط الوحشي الذى كان يلقيه الاستعماريون على المثقفين بعض الشيء كان الجو مليئا بتباشير الوعي والنهضة والقوى الوطنية تتأهب للانقضاض وقد استفاد المثقفون من خبرة ١٩٢٤ فأيقنوا ان لاسبيل الى التحرر الوطني بغير الاهبة التامة والتسلح بالعلم والمعرفة والاتصال بالشعب لرفع روحه الوطني ووعيه السياسي وفي هذا الجو كتب المحجوب هذا البحث واهداه لمهرجان الادبي بامدرمان مساهمة في توجيه الاديب السوداني

وبوضوح سافر يحمل الكتاب ميسم العصر في اسلوب تفكيره وتعبيره فهو من ناحية يكشف احساس المثقفين بالعزلة والتوحد بعيدا عن الشعب ومن ناحية ثانية يوضح ان المثقفين كانوا وحدهم الامل والثقافة وحدها الطريق فنجد المحجوب يتحدث عن (المختارين) و (اصحاب الثقافة الحقة) و (الصفوة المختارة) على اساس انهم صانعو التاريخ وموجهو اقدار الامم وان دور (الدهماء) ينحصر في اتباع هؤلاء الصفوة اذ انه (لربما بقيت الدنيا في حالة من الركود لا مناص من البقاء عليها لو لا ظهور حفنة من الموهوبين اصحاب المثل العليا ص١) وتأكيدا لايمانه بالبطولة الفردية يختتم كل فصل من فصول بحثه الاحد عشر بهذه العبارة «والمخلصون المتفانون من اصحاب المثل العليا من ابناء هذه البلاد البرره» بل انها تتردد في صلب الفصل الواحد مرة او مرتين

وقد لا يبدو لنا غريبا ان يؤمن المحجوب بالانجازات الفردية اذا تذكرنا

حالة المجتمع والعصر حين كتب. فقد كانت جماهير الشعب غارقة فى بحار الجهل ومعزولة بقصور وعيها عن كل حركة سياسية فى البلاد وكان المثقفون وحدهم فى مناوئة الاستعمار سرا او علنا وبعد تجربة ثورية فاشلة تأكد للمثقفين هذا الانعزال فان الذين وقفوا امام محاكم ١٩٢٤ كانوا كلهم من المثقفين وبعد مرور كل تلك الاعوام لم ينس المثقفون بل تأكد لديهم ان خلاص البلاد يقع على عواتقهم وان على عملهم واخلاصهم يتوقف مستقبل البلاد.

ولكى يكتسب هذا الوعى بعده الثالث فى وجدان الطبقة المثقفة ويرسخ فى ذهنها وادراكها، ظهرت هذه النظريات التى تؤكد دور البطل وتجعل من الاستقلال الفكرى معبرا الى الاستقلال السياسى وبهذا يشترك الجيل كله فى اكبار الفكر والايمان بدوره فى تقدم المجتمع بحيث اقبلوا على كل فكر مهما كان مصدره على اساس انه تراث انسانى فاصلين بذلك بين الفكر والمجتمع الذى ينتجه كما يمر المحجوب: «ذلك لان تراث الانسانية الفكرى تراث مشترك ولا تعرف دنيا الفكر التناحر والتنافر والدسائس التى تسود عالم السياسة والاقتصاد ص ٢٥» ولذلك نراهم يتقبلون الثقافة الانجليزية ويتعصبون لها فى حين يرفضون الانجليز كمتسلطين ومستعمرين

هذا الفكر الفردى النزعة يبدو نتاجا طبيعيا للمرحلة وللظروف. فالتربية المدرسية التى فرضها الاستعمار كانت ولا تزال تغذى الروح الفردى وتقويه. وكان وضع الجيل كارستقراطية مثقفة ومتميزة عن بقية الناس عاملا مساعدا كما ان اتجاه الجيل الى الادب كان اللمسة الاخيرة فقد اعطاهم الادب احساسا حادا بالذات اصبح عاملا هاما فى حياتهم الفكرية فيما بعد.

قلنا ان الجيل خاض اعنف معاركه مع الجيل الوالد واستطاع ان يهزم خرافاته وتقاليده الزائفة وقلنا ان الجيل تعرض الى رد فعل عنيف من الجبهة المضادة فاصبح موضع اتهام بكافة العيوب الوطنية والخلقية وعرف تماما معنى الحرب الاجتماعية فأدرك قيمة الحليف القوى فى كل معركة وكرس نفسه لايجاد ذلك الحليف وتحت تأثير التجربة الثورية الفاشلة فى ١٩٢٤ اصبح اكثر تشددا فى هذه المسألة بصورة غريبة وما زال يبحث لنفسه عن الحليف القوى ويجرب مختلف انواع المصالحات حتى هدته الظروف الى ان حليفه ينبغى ان يكون أقوى سلطة فى المجتمع على الاطلاق السلطة الطائفية

وبسهولة غريبة تم هذا الحلف العجيب بين الطبقة المثقفة والسلطات

الطائفية فالتف كل فريق من المتعلمين حول واحد من القادة الروحيين للبلاد يستمدون منه العون المادى والادبي ويجدون عنده الامن والحماية من بطش الاستعمار الانجليزى ويجمعون الجماهير حولهم باسم ذلك الزعيم ونيابة عنه وبهذه الصورة كانت الاحزاب السودانية في البداية خالية من اى مضمون طبقي او اجتماعي فالطبقة الواحدة تقتتل وتتنازع لا باسم مصالحها ولا باسم مستقبلها وانما باسم ولائها الطائفي وتبعيتها الروحية واذا كنا نلحظ الان مظاهر التكوين الطبقي للاحزاب فان ذلك مردود الى التطورات الاخيرة في الوضع السياسي وليس أمرا مكتسبا من الطبيعة الاصيلة لتلك الاحزاب

وقد نتج عن هذا الوضع الشاذ كثير من الخلط والتخبط واصبحت البواكير الباكرة للحركة السياسية في السودان تستعصى على التصنيف فاكثر الاحزاب يمينية يطوح فجأة الى اقصى اليسار ويتخذ اشد الاحزاب يسارية اكثر المواقف يمينا ورجعية وتتغير الشعارات والواجهات بسرعة البرق كل هذا دون ان تتأثر القاعدة الجماهيرية كثيرا فهى دائما هنالك بحكم ارتباطها الطائفي وبحكم وعيها المتخلف.

ولكن الوضع يزداد جلاء حين نذكر ان الاحزاب التي تم تكوينها على ايدى الرواد لم تكن في الاساس طبقية الهدف فقد كانت احزابا قومية تدافع عن قضية قومية هى قضية استقلال السودان والخلاف حول قضية كهذه يرجع في اساسه للاختلافات الفكرية والنظرية اكثر من الخلافات الطبقية ولن الطبيعة القومية للقضية هى المسؤولة عن قدرة هذا الجيل على التصالح وعقد الاحلاف بعكس رجال الوثبة ١٩٢٤ الذين كانوا يمثلون طرفا في النزاع الطبقي الدائر بين الطبقة الوسطى الجديدة والطبقات التقليدية المستفيدة من الاستعمار

بعد هذا الجيل الرائد تتحدد المعالم الاساسية للفكر السوداني وبه يبدأ عطاؤه الجديد ومع الاجيال اللاحقة تزداد تلك المعالم وضوحا وجلاء فيأتى بعده اجيال اوفر استيعابا للفكر الاوروبى وتفاعلا معه واكثر احتمالا بالطابع السوداني في الانتاج الفكرى أدبا او علما وهى بهذه الصورة انما تكمل نفس البناء الذى بدأه الرواد حين بدأوا التلقى عن الاصول الاوروبية وحين اعتمدوا الطابع المحلى ولفتوا الانظار الى اهميته.

خاتمة

ان البحث فى الفكر السودانى لايكتمل برصدنا الى هذه النقطة بالحديث عن جيل الرياده و لابد من التطرق الى الجيلين اللاحقين ودورهما فى اثراء ذلك الفكر وتطويره ولكن ذلك مجهود ينبغي ان تتضافر عليه جهود عديد من الباحثين والدارسين ولا سبيل الى ادائه فى الظروف الراهنة فضلا عن احتياجه الى انتظار طويل من جانب الباحث اذ ان الجيلين موضوع الحديث وصل احدهما مرحلة العطاء والاخر بطريقه الى النضوج وبهذه الصورة يصبح الحكم عليهما نوعا من التعجل والارتجال.

الجيل الذى يتلو الرواد مباشرة هو فى نظرى جيل اليقظة فى الثقافة السودانية وهو جيل العطاء المتخصص المستانى وهو جيل الدراسات فوق الجامعية وجيل التأليف الغزير والنضوج الفكرى العاطفى . . انه جيل سعد الدين فوزى وهنرى رياض وجمال محمد احمد ومحمد المهدى المجذوب وعبدالله الطيب وبشير محمد سعيد ورصفائهم من افاضل المثقفين السودانيين . هذا الجيل يقف الان فى قمة نضجه الفكرى مؤديا دوره الخلاق فى خدمة الثقافة السودانية ولدراسته ينبغى ان يتوفر لنا كثير من المادة العلمية من تراجم ذاتية وسير ودراسات مفردة يؤديها متخصصون لكل مجال . . وينبغى ايضا ان تنفرج ارحب فارحب ضائقة النشر فى السودان والتى تلزم المفكر بالصمت على اثاره ردحا من الزمان حتى تتوفر الفرصة السانحة لنشر تلك الاثار بحيث تظهر فى تاريخ جد بعيد من تاريخ تأليفها الامر الذى يحرم الحياة الثقافية فى السودان من فوائد الرصد الدقيق والمتابعة والمعاصرة بمعناها الصحيح للقضايا والانتاج.

واما الجيل اللاحق فانا امل ان يكون جيل الوعى وان يندرج اسمه فى التاريخ بتلك الصورة بصفته الوريث لمجهودات تلك الاجيال العظيمة من الرجال وبالفرص التى يتيحها له الاستقلال وظروف العصر ليكتسب وعيا كاملا بذاته وبعصره . . والبواكير التى يقدمها الينا هذا الجيل تدعو الى كثير من الرضاء والطمأنينة وكثير من الثقة بمستقبل الثقافة فى السودان .

اختتم حديثي عن هذه الحقب التاريخية موقنا انني ظلمت الكثيرين من المفكرين السودانيين على مدى الحقب لا عن قصد ولا عن تغافل فان اللوم يرجع الى ظروفنا الثقافية الشاذة التي تقضي بأن تتشرد الآثار العلمية والفنية وتقبع في ادراج المكاتب وخزانات الكتب وان يصبح الحصول عليها اصعب من الحصول على شجر الاكسير نسبة لظروف النشر الثقافي في بلادنا وقلة المعنيين بجمع التراث ورصده وتسجيله والى ان تزول تلك الظروف اقول ربما نلتقي لنراجع ونحذف ونضيف والله الموفق والمستعان .

محتويات الكتاب

الموضوعات:

القسم الاول

الاصــــــول

القسم الثانى

مراحل التطور



كتب صدرت للمؤلف

ديوان أمتي	١٩٦٩
بعض الرحيق أنا والبرتقالة أنت	١٩٧٦
في خباء العامرية	
يختبئ البستان في الوردة	١٩٨٩

كتب تحت الطبع :

مزرعة اليمام

بين نار الشعر ونار المجاذيب
"دراسة في أدب محمد المهدي المجذوب"